رواية

جيمس مولاهان كين



ساعي البريد يدقّ الباب دومًا مرّتَين

ترجمة: أحمد حسن المعيني

جيمس مولاهان كين

ساعي البريد يدقّ الباب دومًا مرّتَين

ترجمة: أحمد حسن المعيني



ساعي البريد يدقّ

الباب دومًا مرّتَين



Author: **James Mallahan Cain**	اسم المؤلف: جيمس مولاهان كين
Title: **The Postman Always Rings Twice**	عنوان الكتاب: ساعي البريد يدقّ الباب دومًا مرّتين
Translated by: **Ahmed Hassan Al-Maaini**	ترجمة: أحمد حسن المعيني
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2022**	الطبعة الأولى: 2022



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

كلمة المترجم

عزيزي القارئ،

من أهمّ سِمات النزعة الأدبيّة التي يكتب بها مؤلف هذه الرواية الاعتمادُ على اللغة اليوميّة الدارجة المباشرة، لا سيّما في الحوارات. لذلك آثرتُ تطعيم النصّ ببعض التعابير والمفردات العاميّة القريبة من الفصحى، لتقديم ما يكفي من الإيحاء بوجود لغةٍ عاميّة.

إلى
ڤِنسِنت لورنس

الفصل الأول

قذفوا بي من شاحنة القشّ قرب الظهيرة. كنتُ قد «تشعبطتُ» بها الليلةَ الماضية عند الحدود، وفور أنْ تسلّقتُها ودخلت تحت الغطاء القماشيّ، رحتُ في سابع نومة. كنت أحتاج إلى كثير من النوم بعد الأسابيع الثلاثة في «تيخوانا»[1]، لذلك حين توقّفوا على جانب الطريق لتبريد الموتور كنتُ ما أزال نائمًا. فلمّا انتبهوا لرِجلي، رمَوني. حاولتُ أن أستظرف، لكنّ ما قلته لم يكن مضحكًا. أعطوني سيجارة على أيّ حال، ومضيتُ في سبيلي أبحث عن شيء آكله.

عندها رأيتُ «مطعم توِن أوكس». لم يكن يبدو أكثر من مطعم سندويشات حقير على جانب الطريق، مثل ملايين غيره في كاليفورنيا. يتألّف المطعم من قاعة طعام في الأسفل ومسكن في الأعلى، وإلى جانب المطعم محطّة بنزين خلفها ستة أكواخ يسمّونها ساحة سيّارات. دخلتُ مسرعًا أتلفّتُ نحو الشارع، فلمّا جاء اليونانيُّ سألتُه إن رأى شخصًا يقود سيّارة كادِلاك. قلتُ له كان من المفروض أن نلتقي هنا على الغداء، فقال اليونانيّ إنه لم ير أحدًا اليوم، ثم رتّب إحدى الطاولات وسألني عن طلبي. قلتُ أريد عصير برتقال، وكورن فليكس، وبيضًا مقليًا، ولحمًا مقدّدًا، وفطيرة إنتشيلادا، وكعكًا محلّى، وقهوة. وسرعان ما عاد بعصير البرتقال والكورن فليكس.

«لحظة، لكي أكون واضحًا معك. المفروض أن يكون الأكل على

1- تيخوانا أو تيهوانا أو تياوانا (Tia Juana): مدينة مكسيكيّة قريبة جدًا من الحدود مع الولايات المتحدة. (المترجم).

حسابه، وليس معي ما يكفي. فإذا لم يأتِ صاحب الكادِلاك عليك أن تثق بي حتى أعود فأدفع لك».

«لا مُسكلة. كُلْ على راحتك»[2].

لاحظتُ أنه صدّقني، فلم أعد إلى ذكر صاحب الكادِلاك. ثمّ أدركتُ أنه يريد شيئًا.

«ماذا تستغِل؟ في أيّ سيء تستغِل، هاه؟»

«ألقّط رزقي من هنا وهناك. لماذا تسأل؟»

«كم عُمرك؟»

«أربع وعشرون».

«سَباب هاه؟ أنا أحتاج لسباب، يعمل هنا».

«محلُّك جميل».

«الهواء. جميل. لا ضباب مثل لوس أنجلس. لا ضباب أبدًا. جميل، صافٍ، طوال الوقت جميل وصافٍ».

«الجوّ رائع في الليل أكيد. أعرفه من رائحته».

«نعم، النوم مُريح. تفهم في السيّارات وتصليحها؟»

«أكيد. أنا ميكانيكي بالفطرة».

ظلّ يتحدّث عن الهواء، وصحّته الممتازة منذ أن اشترى هذا المحلّ، وأنه لا يفهم لماذا يهرب منه الذين يعملون عنده. كان بإمكاني إدراك السبب، لكنّي ركّزتُ في الطعام.

«تعتقد أن المكان سيعجبك هنا؟»

كنتُ قد فرغتُ من قهوتي، وأشعلتُ سيجارًا قدّمه لي. «بصراحة، عندي عرضان آخران. هذه مشكلتي. لكنّي سأفكر في الأمر. أكيد سأفكّر».

***

2- آثرنا هنا الإبقاء على خاصية لغوية يتّسم بها اليونانيّون عادةً، وهي أنهم يستصعبون نُطق بعض الأصوات مثل «ش» و«تش» و«ج»، فاخترنا تحويل صوت «ش» إلى «س»، لتقديم ما يكفي من الإيحاء بالعُجمة، مع الإبقاء على الأصوات الأخرى رغم أنّه من الواضح طبعًا أنّ المتحدّث اليونانيّ غالبًا لن ينطق أصوات «ع» و«ض» مثلًا في العربية. (المترجم).

ثمّ رأيتها. كانت في الخلف، في المطبخ، لكنها جاءت لأخذ صحوني. لم تكن ذات جمال صارخ باستثناء قوامها، لكنّ نظرتها واجمة، وشفتيها مزمومتان بطريقة تدعو إلى تقطيعهما.

«هذي هي المدام».

لم تنظر إليّ. أومأتُ لليونانيّ، ولوّحتُ بسيجاري، لا أكثر، وخرجتْ هي بالصحون، فكأنها لم تأتِ أصلًا. عندها غادرتُ المطعم، لكنّي عدتُ بعد خمس دقائق كي أترك رسالةً لصاحب الكادِلاك. تمنّعتُ نصف ساعة قبل أن أقبل الوظيفة، وفي نهاية الأمر كنت في محطة البنزين أصلح العجلات المعطوبة.

«هيه، ما اسمك؟»

«فرانك تشامبرز».

«وأنا نِك پاپاداكِس».

تصافحنا، وذهب. بعد دقيقةٍ سمعتُه يغنّي. كان صوته جميلًا. من محطّة البنزين كنتُ أستطيع أن أرى المطبخ.

الفصل الثاني

قرب الثالثة عصرًا جاء رجل كان منزعجًا جدًا لأنّ شخصًا وضع ملصقًا على مرآته الجانبيّة. اضطُررت إلى الذهاب إلى المطبخ كي أزيله بالبخار.

«أوه، إنتشيلادا! أنتم أفضل مَن يطبخها».

«أنتم؟»

«أقصد أنتِ والسيد پاپاداكِس. أنتِ ونِك. الإنتشيلادا التي أكلتُها على الغداء كانت مثل الخوخة».

«أوه».

«عندك خِرقة؟ أزيل بها هذا الشيء».

«لكنّكَ قصدت شيئًا آخر».

«هذا الذي قصدته».

«تقصد أنّي مكسيكية».

«أبدًا».

«أعرف قصدك. سمعتُ هذا من قبل. اسمع، أنا بيضاء مثلي مثلك. ربما شعري داكن وبشرتي هكذا، لكنّي بيضاء مثلك. لا تنسَ هذا الشيء إن كنت تريد أن تبقى هنا».

«حقيقةً شكلك ليس مكسيكيًا».

«قلت لك أنا بيضاء مثلك».

«شكلك ليس مكسيكيًا أبدًا. للمكسيكيّات أفخاذ كبيرة وسيقان مهلهلة وصدور تصل إلى تحت الذقن وبشرة صفراء وشعر كأنّه مدهون بزيت اللحم

المقدّد. أنتِ مختلفة. رشيقة وبشرتك بيضاء حُلوة، وشعرك ناعم مموَّج، رغم سواده. الشيء المكسيكيّ الوحيد فيكِ أسنانك. كلّ المكسيكيات أسنانهن بيضاء. هذه ميزة فيهنّ لا تُنكر».

«اسم عائلتي قبل الزواج سْمِث. الاسم ليس مكسيكيًا، صح؟»

«صح».

«ولستُ من هنا أصلًا. أنا من آيوا».

«سمِث، هاه. وما اسمك؟»

«كورا. نادِني كورا إن أردت».

أدركتُ حينئذٍ مصدر قلقها. لم تكن فطيرة الإنتشيلادا التي تطبخها، أو سواد شعرها. زواجها من ذلك اليونانيّ هو الذي جعلها تشعر بأنها ليست بيضاء، وكانت تخشى أن أناديها السيّدة پاپاداكِس.

«طيّب كورا. وما رأيكِ أن تناديني فرانك؟»

اقتربتْ منّي وبدأتْ تساعدني في تنظيف المرآة. من شدّة قربها منّي كنتُ أشمّ رائحتها. عندها قلتُ ما أريده في أذنها، كأنّي أهمس: «لا أفهم كيف تتزوّجين هذا اليوناني».

جَفَلتْ، كأنّي ضربتُها بسوط. «شيء لا يخصّك».

«يخصّني، جدًا».

«خذ المرآة».

«شكرًا».

خرجتُ. أخذتُ منها ما أردت. ضربتُها ضربةً أوجعتْها، رغم الدرع الذي كانت تحتمي به منّي. من الآن فصاعدًا يوجد شيء بيني وبينها. ربما لا تقول نعم، لكنها لن تماطل. لقد فهِمتْ قصدي، وكانت تعرف أنّها أصبحت في يدي.

في ذلك المساء ونحن على طاولة العشاء انزعج منها اليونانيّ لأنها لم تقدّم لي المزيد من البطاطس المقليّة. كان يريد أن يستميلني كي لا أرحل عنه مثل البقيّة.

«لم تقدّمي للرجل ما يكفي».

«الأكل أمامه على الطبّاخة. وعِنده يد يأخذ بها».

«لا بأس، لا بأس. لا أريد الآن».

ظلّ هكذا طوال الوقت. لو كان له عقل لأدرك أنّ في الأمر شيئًا، فهي ليست من النوع الذي يترك الضيف يخدم نفسه. لكنّه مغفّل، ولم يتوقف عن التذمّر. كنا على طاولة المطبخ، يجلس هو في طرف، وهي في الطرف الآخر، وأنا في الوسط. لم أنظر إليها، لكنّي كنتُ أستطيع رؤية ثوبها. كان من تلك الأثواب التي تشبه زيّ الممرضات، ترتديها كثير من النساء سواء أكنّ يعملن في عيادة أسنان أم في مخبز. كان الثوب نظيفًا في الصباح، لكنّه الآن مجعّد ومتّسخ. وكنتُ أستطيع أن أشمّ رائحتها.

«ألن تحضري له الأكل؟»

نهضتْ كي تحضر البطاطس، وانفتح ثوبها قليلًا فرأيتُ ساقها. أعطتني البطاطس لكنّي لم أستطع أن آكل المزيد.

«ارتحت؟ بعد كلّ هذا ولا يريد أن يأكلها».

«لا مسكلة. المهمّ أنها هنا إذا أرادها».

«لستُ جائعًا. أكلتُ الكثير على الغداء».

كان يتصرّف كالمنتصر الذي تدفعه أخلاقه الرفيعة لأن يعفو عنها. «كورا امرأة لطيفة. إنها عصفورتي البيضاء. حمامتي البيضاء».

غمز لها وصعد إلى الأعلى. جلسنا أنا وهي، دون أن ننطق بكلمة. وحين عاد كانت معه زجاجة كبيرة وغيتار. صبّ قليلًا من الزجاجة، لكنّه كان نبيذًا يونانيًا لاذع الحلاوة، أصابني بالغثيان. بدأ يغنّي، وكان صوته قويًا من طبقة التينور، ليس واحدًا من تلك الأصوات التي نسمعها في الراديو، بل أقوى، وكان يضيف تنهيدةً في المقاطع ذات النغمة العالية، كأنه في أغنية لإنريكو كاروسو[3]. لكنّي لم أكن أستمع إليه. كان وضعي يزداد سوءًا.

انتبه لامتقاع وجهي فأخذني إلى الخارج. «هنا أفضل في الهواء الطلق».

3- إنريكو كاروسو (Enrico Caruso): فنّان إيطالي اشتُهر بأداء طبقة التينور. (المترجم).

«لا تقلق. سأصير بخير».

«ارتح. لا تتكلّم».

«ادخل أنت، لا بأس. أنا أكثرتُ في الأكل على الغداء. سأصير بخير».

دخل، فأفرغتُ كلّ ما في جوفي. كان جحيمًا ذلك الغداء، أو البطاطس، أو النبيذ. مِن شدّة رغبتي في تلك المرأة لم أستطع أن أُبقي شيئًا في جوفي.

***

في الصباح سقطتْ لافتةُ المطعم. كانت الريح قد بدأت تهبّ في منتصف الليل، وما إن حلّ الصباح حتى تحوّلتْ إلى عاصفة اقتلعت اللافتة.

«فظيع. انظر!»

«كانت ريحًا قويّة. لم أستطع أن أنام. لا نوم طوال الليل».

«قويّة أكيد. انظر ما حدث للاّفتة».

«تكسّرت».

جلستُ أعبث باللافتة كمن يحاول أن يصلحها، وهو يقترب مني يراقبني.

«من أين لك هذه اللافتة؟»

«كانت هنا حين استريت المحلّ. لماذا؟»

«سيّئة جدًا. لا أدري كيف يأتيك الزبائن».

ذهبتُ أصبّ البنزين لسيارة قادمة، وتركتُه يقلّب الأمر. فلمّا عدتُ وجدته ينظر إلى اللافتة وهي مسندة أمام المطعم. كانت بها ثلاث لمبات مكسّرة. أوصلتُ السِلك، لكنّ نصف اللمبات الأخرى لم تشتغل.

«لا مُسكلة. ركّب لمبات جديدة، وارفع اللافتة».

«الرأي رأيك، أنت صاحب الشأن».

«ما المسكلة؟»

«عفا عليها الزمن. الناس الآن لا يستخدمون اللمبات. يستخدمون لافتات النيون. إضاءتها قويّة، ولا تستهلك الكهرباء. انظر إلى المكتوب على اللافتة! تْوِن أوكس. فقط. وكلمة مطعم غير مضاءة. لكنّ عبارة تْوِن

أوكس لا تُحسّسني بالجوع. لا تجعلني أتوقف لأشتري شيئًا آكله. صدّقني أنت تخسر الكثير بسبب هذه اللافتة ولا تدري».

«ركّب اللمبات. لا مسكلة».

«لماذا لا تشتري لافتة جديدة؟»

«أنا مسغول».

لكنّه ما لبث أن عاد ومعه ورقة. كان قد رسم فيها لافتة جديدة لوّنها بالأحمر والأبيض والأزرق. كتب عليها «مطعم تُونِ أوكس» وكلمات «كُل» و«مشاوي» و«دورات مياه» و«لصاحبها ن. پاپاداكِس».

«ممتاز! هذا هو الإبهار».

صحّحتُ تهجئة الكلمات، وأضاف هو بعض الرتوش على الأحرف.

«نِك. لماذا نرفع اللافتة القديمة؟ لماذا لا تذهب اليوم إلى المدينة تشتري لافتة جديدة؟ لافتات النيون جميلة، صدّقني. ومهمّة. اللافتة لا تقلّ أهميّة عن المحل نفسه، صح؟»

«ضروري! اليوم أذهب».

***

لا تبعد لوس أنجلس عن المحل أكثر من ثلاثين كيلومترًا، لكنّه تأنّق كما لو أنه ذاهب إلى باريس. ذهب بعد الغداء مباشرة، وما إن ذهبَ حتى أقفلتُ الباب الأمامي. أخذتُ صحنًا من إحدى الطاولات، ودخلتُ به إلى المطبخ. كانت هناك.

«هذا صحن كان على الطاولات».

«أوه، شكرًا».

وضعتُه، فكان صوت الشوكة وهي تهتزّ على الصحن مثل الدفّ.

«كنت سأذهب، لكنّي بدأت أطبخ وقلت من الأفضل أن لا أذهب».

«حتّى أنا عندي أشياء كثيرة».

«كيف حالك الآن؟»

«بخير».

«أحيانًا يكون السبب شيئًا بسيطًا. لو تغيّر عليك الماء الذي تشربه مثلًا».

«ربما أكلت كثيرًا على الغداء».

«ما هذا الصوت؟»

كان هناك شخص يدفع باب المطعم بقوّة. «ربما شخص يحاول الدخول».

«والباب مقفول يا فرانك؟»

«يبدو أني قفلته».

نظرتْ إليّ، وشحب وجهها. مضتْ من باب الزنبرك وأخذت تنظر. دخلتْ قاعة الطعام، لكنها سرعان ما عادت.

«راحوا».

«لا أدري لماذا قفلتُه».

«وأنا نسيت أن أفتحه».

وهمّت بالذهاب، لكنّي أوقفتُها. «لنتركه.. مقفولًا».

«لكن إذا كان مقفولًا لن يدخل أحد. عندي طبخ أكمله. سأغسل هذا الصحن».

طوّقتها بذراعيّ وقطّعتُ شفتيها بشفتيّ.

«عضّني! عضّني!»

عضضْتُها. غرزتُ أسناني في شفتيها بقوّة حتى شعرتُ بالدم يتفجّر في فمي. كان الدم يجري على عنقها حين حملتُها إلى الطابق العلويّ.

الفصل الثالث

كنت في اليومَين التاليَين ميتًا من التعب، لكنّ اليونانيّ كان منزعجًا مني، فتدبّرتُ أمري. كان غاضبًا لأنني لم أصلح باب الزنبرك الذي يفصل بين المطبخ وقاعة الطعام. قالتْ له إنّ الباب ارتدّ إليها وضربَها على فمها. كان لا بدّ أن تقول له شيئًا يفسّر انتفاخ فمها بعد أن عضضتُها. لذلك قال إنّ الذنب ذنبي لأنّي لم أصلح الباب. شددتُ الزنبرك فأصبحتْ دَفعةُ الباب أضعف، وانحلّت المشكلة.

لكنّ السبب الحقيقي وراء غضبه منّي كان اللافتة. فقد أعجبتْه الفكرة إلى حدّ الخوف من أنّني سأنسبها إلى نفسي. كانت لافتةً ضخمة لم يستطيعوا الانتهاء منها في اليوم نفسه، ولم تجهز إلا بعد ثلاثة أيام فذهبتُ إليهم وأحضرتُها وعلّقتُها. كانت تحتوي على كلّ ما رسَمَه في الورقة، إضافة إلى شيئَين آخرَين. كان بها علمٌ يونانيّ وعلمٌ أميركيّ، ويدان تتصافحان، وعبارة «رضاؤكم مضمون». واللافتةُ كلّها كانت بأضواء النيون الحُمر والبِيض والزُّرق، فانتظرتُ حتى حلول الظلام كي أشغّلها. وما إن شغّلتُها حتى أضاءت مثل شجرة عيد الميلاد.

«رأيت لافتات كثيرة في حياتي، لكنّي ما رأيت مثلها. أعترف بإبداعك يا نِك».

«يا سلام. يا سلام».

تصافحنا. وعادت الأمور إلى مجاريها.

***

في اليوم التالي اختليتُ بها دقيقةً، فضربتُها على ساقها بقوّة حتى كادت تسقط.

«كيف تصبح عنيفًا هكذا؟». كانت تجأرُ كأنها كُوغَر[4]. كانت تستهويني هكذا.

«كيف حالك يا كورا؟»

«زفت».

وعندها، بدأتُ أتشمّمها مرة أخرى.

***

ذات يوم سمع اليونانيّ أنّ شخصًا في مكانٍ قريب يبيع البنزين بسعرٍ أقلّ منه. فانطلق بسيّارته ليتحقّق من الأمر. كنتُ حينها في غرفتي، فاستدرتُ كي أهجم على المطبخ. لكنّها كانت هناك، عند الباب.

اقتربتُ منها ونظرتُ إلى شفتَيها. لم أجد فرصةً من قبل لكي أتفحّصهما. صحيحٌ أنّ التورّم زال، لكنّ علامات الأسنان ما تزال واضحة، كشقوقٍ زُرق صغيرة على الشفتَين. لمستهما بأصابعي. كانتا ناعمتَين رطبتَين. قبّلتهما، بغير عنف. قبلات خفيفة. لم تطرأ ببالي هذه القبلات من قبل. ظلّت معي حتى عاد اليونانيّ، بعد ساعة أو نحو ذلك. لم نفعل شيئًا. تمدّدنا على السرير، وظلّت تعبث بشَعري وتنظر في السقف، كأنما تفكّر.

«تحبّ فطيرة التوت البرّي؟»

«لا أدري. ربما نعم».

«سأطبخها لك».

***

«انتبه يا فرانك، سيتلف زنبرك السيّارة».

«في ستّين داهية».

صدَمنا شجيراتِ أوكالبتوس على جانب الطريق. كان اليونانيّ قد طلب منا الذهاب إلى السوق لنرجع قِطعًا من اللحم قال إنها مثل الزفت، وفي

4- حيوان الكُوغر (cougar)، ويُسمى أيضًا الأسد الأميركي أو أسد الجبال. ولعلّ هذا الوصف ينطوي على دلالة جنسيّة كذلك، فمثلًا تُوصف المرأة الكبيرة الشبقة في الثقافة الأميركية بأنها كُوغر. (المترجم).

طريق العودة حلّ الظلام. صَدمتُ السيارة في تلك الشجيرات فقفزت السيّارة وارتدّت، لكنّني حين وجدتُ نفسي بين الأشجار توقفتُ. طوّقتْني بذراعَيها حتى قبل أن أطفئ الأضواء. فعلنا أشياء كثيرة. بعد فترة، اكتفينا بالجلوس. «لا أستطيع أن أستمرّ هكذا يا فرانك».

«ولا أنا».

«لا أحتمل. وأريد أن أكون سكرانةً معك يا فرانك. تفهمني؟ سكرانة».

«أعرف».

«أكره هذا اليونانيّ».

«صحيح، لماذا تزوّجتِه؟ لم تخبريني من قبل عن ذلك».

«لم أخبرك بأيّ شيء».

«لم نكن نضيّع الوقت في الكلام».

«كنت أعمل في مطعمٍ حقير. والفتاة التي تقضي سنتين في مطعم حقير في لوس أنجلس تتزوّج أوّل رجل يلبس ساعة ذهبية».

«ومتى تركتِ آيوا؟»

«قبل ثلاث سنوات. فزت في مسابقة للجَمال. فزت في مسابقة جمال في مدرسة ثانوية في دي موين. كنت أعيش هناك. كانت الجائزة عبارة عن رحلة إلى هوليوود. في قطار «تشيف» ربما صوّر معي خمسة عشر شابًا. بعد أسبوعين فقط صرت في المطعم الحقير».

«ولم ترجعي مرة أخرى؟»

«كي أعطيهم فرصةً للشماتة؟»

«واشتغلتِ في السينما؟»

«اختبروني. نجحت من حيث الوجه. لكن الأفلام الآن صار فيها كلام. فلمّا بدأتُ أتكلّم عرفوا حقيقتي، وأنا عرفتها أيضًا. مجرّد بنت وسخة من دي موين. للقرود فرصة في السينما أكثر منها. على الأقل القرود تُضحِك الناس. أما أنا فكنت أثير القرف».

«وبعد ذلك؟»

«قضيت سنتين في المطعم، يقرص الرجال ساقي ويعطونني بقشيشًا تافهًا، ويعرضون عليّ أن أسهر معهم. وذهبتُ معهم في بعض السهرات يا فرانك».

«وبعد ذلك؟»

«تفهم قصدي بالسهرات، صح؟»

«أعرف».

«بعد ذلك التقيته، وتزوّجته. أقسم أني كنت أنوي الإخلاص له. لكنّي ما عدت أحتمل. يا ربّ، هل أبدو عصفورةً بيضاء؟»

«بالنسبة لي أنتِ شيطانة».

«صح؟ أنت عرفت هذا مباشرة. وأنا غير مضطرة لأن أتظاهر أمامك. ثانيًا أنت نظيف. لست مُعفَّنًا. تفهمني يا فرانك؟ أنت لست مُعفَّنًا».

«أعتقد فهمتك».

«لا أعتقد. الرجال لا يمكن أن يفهموا معنى هذا بالنسبة للمرأة. معنى أن تضطر للبقاء مع شخص معفّن يقرفك حين يلمسك. لستُ شيطانة يا فرانك. لكنّي ما عدت أحتمل».

«لستِ شيطانة؟ تضحكين عليّ الآن؟»

«طيّب، أنا شيطانة. لكن لا أعتقد أني سأكون سيئة جدًا لو كنت مع إنسان غير معفّن».

«كورا، ما رأيك لو نهرب؟»

«فكّرت في هذا. فكّرت كثيرًا».

«نترك هذا اليونانيّ ونختفي».

«إلى أين؟»

«أيّ مكان. لا يهمّ».

«أيّ مكان. تعرف أين هذا الأيّ مكان؟»

«في كلّ مكان. أيّ مكان نختاره».

«لا. الأيّ مكان هو المطعم الحقير».

«انسي المطعم الحقير. أقصد أن نتسكع. أنا أعرف الطريق أفضل من أي أحد. أعرف كل لفّة فيه وأعرف كيف أدبّر أموري فيه. هذا ما نريده، صح؟ نكون مشردّين على طبيعتنا».

«أنت كنت مشرّدًا حقيقيًا حين جئتنا. لم تكن تلبس حتى جوارب».

«لكنّي أعجبتك».

«أحببتك. وكنت سأحبّك حتى لو لم يكن عندك قميص. ربما كنت سأحبك أكثر من دون قميص، وأشعر بكتفَيك القويّين».

«ربّيتُ هذي العضلات من ضرب المفتّشين في القطارات».

«كلّ ما فيك قويّ. عريض وطويل وقويّ. وشعرك فاتح. لست رجلًا ناعمًا معفَّنًا شعره أسود أجعد يدهنه بزيت عطري كل ليلة».

«أوه، مؤكّد أنّ رائحته جميلة».

«لكنّ فكرتك لا تنفع يا فرانك. التسكّع في الطريق لا يؤدي إلى مكان إلا إلى المطعم الحقير. أشتغل أنا في المطعم الحقير، وأنت في وظيفة تشبهها. وظيفة مقرفة في موقف سيّارات تلبس فيه مريلة. سأبكي لو رأيتك تلبس مريلة يا فرانك».

ظلّت في مكانها فترة طويلة تلوي يدي بين يديها. «تحبّني يا فرانك؟»

«نعم».

«تحبّني ولا يهمّك أي شيء غيري؟»

«نعم».

«عندنا حلّ واحد».

«وتقولين إنك لستِ شيطانة!»

«نعم صدّقني. أنا لست مثلما تتصور يا فرانك. كلّ ما في الأمر أنّ عندي طموحًا. لكن الإنسان لا ينجح من دون حب. صحّ يا فرانك؟ على الأقل المرأة لا تستطيع. الحقيقة أني ارتكبت خطأً واحدًا، ولكي أصلح هذا الخطأ لا بدّ أن أكون شيطانة مرة واحدة فقط. لكنّي لست شيطانة يا فرانك».

«الحلّ هذا يؤدي إلى حبل المشنقة».

«صح، إلا إذا فعلناه بطريقة صحيحة. أنت ذكيّ يا فرانك. وما خدعتك لحظة. متأكدة أنك ستجد طريقة. كثير قبلك وجدوها. وأنا لست أول امرأة تضطر لأن تصبح شيطانة لكي تتخلص من مشكلتها».

«لكنه طيّب معي».

«أبدًا. صدّقني هذا نَتِن. معفّن ونتن. تعتقد أني سأتركك تلبس مريلة مكتوب عليها من الخلف «صيانة السيارات» و«شكرًا، اتصل بنا مرة أخرى»، وهو يلبس أربع بذلات واثني عشر قميصًا حريريًّا؟ نصف هذا المشروع لي، صح؟ أنا أطبخ. وطبخي جيّد، صح؟ حتى أنت تؤدي واجباتك».

«تتكلمين وكأنّ الأمر عادي».

«ومن سيعرف إذا كان عاديًّا أم لا، إلا أنا وأنت؟»

«أنا وأنتِ».

«نعم فرانك. هذا هو المهم، صح؟ أنا وأنت فقط، ليس أنا وأنت والشوارع، ولا أي شيء آخر».

«أكيد أنكِ شيطانة. لا يمكن أن تحرّكي فيّ هذي المشاعر إلا لو كنتِ شيطانة».

«هذا ما سنفعله إذن. قبّلني يا فرانك. على شفتي».

قبّلتُها. كانت عيناها تشعّان مثل نجمتَين زرقاوَين. وبدا الأمر كما لو أنني في كنيسة.

الفصل الرابع

«عندِك ماء ساخن؟»

«الحمّام فيه مشكلة؟»

«نِك يتحمّم».

«أوه، سأعطيك ماء من الغلّاية. نِك يحبّ أن يتحمّم بماء السخّان كلّه».

رتّبنا القصّة كما نريد أن نرويها لاحقًا. كانت الساعة قرابة العاشرة مساء، وقد أغلقنا المحلّ، وكان اليونانيّ مستغرقًا في حمّام السبت كعادته. وكان المخطّط أن أحمل الماء إلى غرفتي وأستعدّ لحلاقة ذقني، ثم أتذكّر أنني تركتُ السيارة في الخارج. والمفروض أن أخرج وأقف إلى جانب السيّارة، فأنبّه كورا بزامور السيّارة إن جاء أحد. وكان عليها هي أن تنتظر حتى تسمع صوته وهو في البانيو، ثم تدخل كي تأخذ منشفة، وتضربه من الخلف بهراوة صنعتُها لها بكيسٍ يحتوي على محامل كراتٍ معدنيّة. فكّرنا في البداية أن أضربه أنا، ثمّ غيّرنا رأينا لأنها لن تثير انتباهه إن هي دَخلت الحمّام، أما إن دخلتُ أنا وقلتُ إني أبحث عن شفرة الحلاقة فقد يخرج من البانيو ويساعدني في البحث. وقد اتفقنا أن تُغرقه في البانيو بيديها بعد الضربة. بعد ذلك تترك الماء يجري قليلًا، وتخرج من النافذة إلى سطح الرواق، فتنزل من سلّم وضعتُه لها هناك، على أن تسلّمني الهراوة وتعود إلى المطبخ. وعندها أَعيد محامل الكُرات إلى صندوقها، وأتخلّص من الكيس، وأُدخل السيّارة في الكراج، ثم أصعد إلى غرفتي وأبدأ الحلاقة. وبحسب اتفاقنا كانت ستنتظر إلى أن تتسرّب قطرات الماء إلى المطبخ، فتناديني. وعندها نكسر باب الحمّام، ونراه هناك، ثم نستدعي الطبيب. هكذا خطر لنا أنّ الأمر سيبدو

كما لو أنّ قدمه زلّت في البانيو واصطدم رأسُه بجدران البانيو ثم غرق. كنتُ قد استلهمتُ الفكرة من خبر منشور في الجريدة قال فيه أحدهم إنّ معظم الحوادث تقع في البانيوهات.

«انتبه. الماء ساخن».

«شكرًا».

كان الماء في قدرٍ صغير، فحملتُه إلى غرفتي ووضعته على الطاولة، وأخرجتُ عدّة الحلاقة. ثم نزلتُ وخرجتُ إلى السيّارة، وجلستُ فيها أراقب الطريق ونافذة الحمّام. كان اليونانيّ يغنّي. خطر لي أنه من الأفضل أن أحفظ اسم الأغنية. كانت أغنية «أمّي العزيزة». غنّاها مرّة، ثم كرّرها. نظرتُ في المطبخ، كانت ما تزال هناك.

ظهرتْ شاحنةٌ مقطورةٍ عند منعطف الطريق، فضغطتُ على الزامور ضغطة خفيفة. في بعض الأحيان يتوقّف سائقو الشاحنات لتناول الطعام، وهم من النوع الذي قد يدقّ الباب إلى أن نفتح لهم. لكنّ الشاحنة مضت في طريقها. مرّت سيارتان أخريان، لم تتوقفا. نظرتُ في المطبخ مرةً أخرى، فلم أجدها. وظهر ضوءٌ في غرفة النوم.

ثم فجأة رأيتُ شيئًا يتحرّك، عند الرواق. كدتُ أضغط الزامور، ثم تبيّن أنها قطّة. كانت مجرّد قطة رماديّة، لكنها أفزعتْني. هذا آخر ما كنت أريد أن أراه آنذاك. اختفتْ دقيقةً، ثم ظهرتْ مرة أخرى تتشمّم عند السلّم. لم أكن أريد أن أضغط الزامور، فهي مجرّد قطّة، لكنّي أردتها أن تبتعد عن السلّم. خرجتُ من السيّارة، واقتربتُ فهشَشتُ عليها.

مشيتُ عائدًا إلى السيّارة، فلمّا وصلتُ إلى منتصف المسافة عادت القطّة وبدأتْ تتسلّق السلّم. هششتُ عليها مرة أخرى، إلى أن وصلتُ إلى السقائف خلف المطعم. ثم عدتُ أدراجي إلى السيّارة، ووقفتُ هناك برهة أراقب القطّة مخافة أن تعود. ثم ظهر شرطيّ عند منعطف الطريق، ورآني واقفًا، فأطفأ درّاجته وأخذ يدفعها مقتربًا منّي قبل أن أتحرّك. فلمّا توقّف كان قد توسّطني أنا والسيّارة. لم أستطع أن أضغط الزامور.

«واقفٌ ترتاح قليلًا؟»

«خرجتُ أركن السيّارة في الكراج».

«هذي سيّارتك؟»

«سيّارة الشخص الذي أشتغل عنده».

«تمام. أردتُ أن أطمئن».

نظر في المكان، ثم رأى شيئًا. «أوف. انظر هناك!»

«ماذا؟»

«قطّة. بنت الذينَ تتسلّق الدَرَج».

«هاه».

«تعجبني القطط. دائمًا تخطّط لشيء».

ثبّت قفّازيه، ونظر إلى السماء، ثمّ ركل دوّاسته مرّتين، ومضى. وبمجرد أن اختفى عن ناظري قفزتُ إلى الزامور. لكنّ الوقت فات. فقد شبّ حريقٌ من الرواق، وانطفأتْ جميع الأضواء. كانت كورا تصرخ في الداخل بنبرةٍ فظيعة في صوتها. «فرانك! فرانك! تعال!!»

***

هرعتُ إلى المطبخ، لكنّه كان مظلمًا تمامًا، ولم يكن معي كبريت، فاضطررتُ إلى تلمّس طريقي. التقينا عند السلّم، كانت تنزل، وكنتُ أصعد. فصرختْ مرةً أخرى.

«اسكتي اسكتي! خلصنا؟»

«نعم، لكنّ الأضواء انطفأتْ قبل أن أغرقه».

«لا بدّ أن يفيق. كان هناك شرطيّ في الخارج، ورأى السلّم!»

«اتصل بالطبيب!»

«اتّصلي أنتِ، وأنا أُخرجه من الحمّام».

نزلتْ، وصعدتُ أنا. دخلتُ الحمّام، واقتربتُ نحو البانيو. كان هناك مستلقيًا لكنّ رأسه فوق الماء. حاولتُ أن أرفعه، لكنّ الأمر كان صعبًا للغاية. كان ينزلق مني من أثر الصابون، واضطُررت إلى أن أقف في البانيو

قبل أن أستطيع رفعه. في أثناء ذلك سمعتُها تتحدّث إلى البدّالة. لم يوصلوها بالطبيب. أوصلوها بالشرطة.

رفعتُه، ووضعتُه على طرف البانيو، ثم خرجتُ وسحبتُه إلى غرفة النوم فمدّدتُه على السرير. صعدتْ، ووجدنا علبة كبريت، فأشعلنا شمعة. ثم بدأنا نعالجه. وضعتُ رأسه على مناشف مبلّلة، فيما راحت هي تفرك معصميه وقدميه.

«أرسلوا سيّارة إسعاف».

«طيّب. رآكِ وأنتِ تضربينه؟»

«لا أعرف».

«كنتِ خلفه؟»

«أعتقد. لكنّ الأضـواء انطفأت ولا أعرف ما حصل. ماذا فعلتَ بالأضواء؟»

«لا شيء. فيْوز من الفيوزات احترق».

«فرانك. الأفضل أن لا يفيق».

«بالعكس، لا بدّ أن يفيق. لو مات، رحنا في داهية. قلت لك إنّ الشرطي رأى السلّم. لو مات سننكشف ونروح في داهية».

«طيّب، ماذا لو رآني؟ ماذا سيقول حين يفيق؟»

«هذا مجرد احتمال. لا بدّ أن نخترع كذبة. أنتِ كنتِ هنا، وانطفأت الأضواء، ثمّ سمعتِه ينزلق ويسقط، وحين ناديتِه لم يردّ عليكِ. ثمّ ناديتِني. هذا الذي حصل. ومهما قال لا تغيّري كلامك. لو رأى شيئًا فهو من خيالاته».

«تأخّرتْ سيّارة الإسعاف».

«اصبري».

وبمجرد أن وصل رجال الإسعاف وضعوه على نقّالة وحملوه في السيّارة. صعدتْ معه، وتبعتُهم أنا بالسيّارة. وفي منتصف الطريق إلى مدينة «غلِندَيل» التحق بنا شرطيٌّ وسار أمام سيّارة الإسعاف. كانوا يسيرون بسرعة 112 كيلومترًا في الساعة، فلم أستطع أن أجاريهم. حين وصلتُ إلى

المستشفى كانوا يرفعونه من النقّالة، فيما يشرف الشرطيُّ على سير الأمور. فلمّا لمحني جَفَل وأخذ يحدّق بي. كان الشرطيّ نفسه الذي رآني.

أدخلوه إلى المستشفى، ووضعوه على سريرٍ متحرّك ودفعوه إلى غرفة العمليّات. جلسنا أنا وكورا في البهو. ولم يمض وقت طويل حتى جاءت ممرّضة وجلستْ معنا. ثمّ جاء الشرطيّ ومعه شرطيّ آخر برتبة رقيب. ظلّا ينظران إليّ، فيما كورا تقصّ للممرّضة ما حدث. «كنت هناك، أقصد في الحمّام، آخذ منشفة، ثمّ انطفأت الأضواء بصوت يشبه طلقة البندقية. يا إلهي، كان الصوت فظيعًا. سمعته يسقط. كان واقفًا يجهّز نفسه قبل أن يفتح الدشّ. كلّمته، لم يردّ، والمكان كان مظلمًا تمامًا. لم أستطع أن أرى شيئًا، ولا أعرف ما حصل. أقصد قلت ربما انصعق بالكهرباء أو بشيء. ثمّ سمعني فرانك أصرخ، وجاء وأخرجه، وأنا اتّصلتُ بالإسعاف. لا أدري كيف كنت سأتصرف لو لم يأتوا بسرعة».

«دائمًا يسرعون إذا كان الوقت متأخرًا».

«أخاف أن تكون إصابته شديدة».

«لا أعتقد. الآن يأخذون صور الأشعّة، ونعرف حالته. لكنّي لا أعتقد أنّ إصابته خطيرة».

«يا رب».

لم ينبس الشرطيّان بكلمة. جلسا في مكانهما ينظران إلينا.

***

أخرجوه على السرير المتحرّك، رأسه ملفوف بالأربطة. وضعوه في المصعد، ودخلنا جميعًا معه، أنا وكورا والممرّضة والشرطيّان، وصعدنا ثم أدخلوه إلى غرفة. دخلنا معه. لم تكن هناك مقاعد كافية، فذهبت الممرّضة وأحضرت مقاعد إضافية بينما كانوا يرفعونه إلى سريره. جلسنا كلنا هناك. تكلّم شخصٌ ما، فطلبت الممرّضة أن نلزم الهدوء. جاء طبيب وتفحّصه، ثم خرج. جلسنا هناك مدّة طويلة، ثم نهضتِ الممرّضة وألقت نظرة عليه.

«أعتقد أنه سيفيق الآن».

نظرت كورا إليّ، فأشحتُ بنظري بسرعة. مال الشرطيّان للأمام قليلًا كي يسمعا ما يقوله. فقد فتح عينيه.

«أحسن الآن؟»

لم يقل شيئًا، ولم يتكلّم أحد أيضًا. كان المكان هادئًا تمامًا حتى أنّي كنتُ أسمع خفقات قلبي. «لا تعرف زوجتك؟ ها هي هنا. استحِ يا رجل، تسقط في البانيو مثل الأطفال لأنّ الأضواء انطفأت؟ زوجتك زعلانةٌ منك. لا تريد أن تكلمها؟»

جاهدَ كي يقول شيئًا، لكنه لم يستطع. اقتربتْ منه الممرّضة وهفهفتْ عليه. أمسكتْ كورا بيده وأخذت تربّت عليها. مال بجسده إلى الخلف برهةً وعيناه مغمضتان، ثم بدأ فمه يتحرّك مرةً أخرى ونظر إلى الممرّضة.

«كل شيء انطفأ».

***

حين طلبتْ منه الممرّضة ألا يتحدّث، أخذتُ كورا ونزلنا إلى السيّارة. وما إن شغّلتُ السيّارة حتى كان الشرطيّ يلحق بنا على درّاجته.

«الشرطي يشكّ فينا يا فرانك».

«هو نفس الشرطي. كان يعرف أن هناك شيئًا حين رآني واقفًا. ما يزال يشكّ».

«والعمل؟»

«لا أعرف. الأمر كله يعتمد على السلّم لو عرف سبب وجوده هناك. أين وضعتِ الهراوة؟»

«ما تزال عندي هنا، في جيبي».

«في جيبك؟ يا إلهي. لو كانوا قبضوا عليكِ وفتشوكِ لرحنا في داهية».

أعطيتها سكّيني، وأمرتُها أن تقطع رباط الكيس وتُخرج الحوامل التي في داخله. ثم طلبتُ منها أن تذهب للمقعد الخلفي وترفع المقعد وتضع الكيس تحته. سيبدو مثل ممسحة توضع مع الأدوات.

«اجلسي في مكانك وراقبي الشرطي. سأرمي محامل الكرات بين الأشجار واحدة وراء الأخرى، أخبريني لو لاحظ الشرطي».

كانت تراقب، وأنا أقود السيّارة بيدي اليسرى، بينما أسند اليمنى على المقود، ثم أقذف بالمحمل من النافذة كأنه كرة زجاجية صغيرة.

«التَفَت؟»

«لا».

فألقيتُ بالبقيّة، واحدًا كلّ دقيقتين. ولم يلاحظ شيئًا.

***

وصلنا، وكان المبنى ما يزال مظلمًا. لم يكن لديّ وقت للبحث عن الفيوز التالف، ناهيك عن إصلاحه. حين أوقفتُ السيّارة، تقدّمني الشرطيّ فكان أمامي. «أريد أن أرى صندوق الكهرباء».

«طبعًا طبعًا. حتى أنا أريد أن أراه».

ذهبنا نحن الثلاثة، وأشعل الشرطيّ مصباحًا يدويًا. وفورًا نخر نخرةً غريبة، ثم انحنى. كانت القطّة هناك، على ظهرها، وقوائمها الأربعة مرفوعة في الهواء.

«مسكينة. ماتت وشبعت موتًا».

ثم صوّب المصباح نحو سقف الرواق والسلّم. «إذن هذا الذي حصل. تتذكر حين رأيناها؟ تسلّقت السلّم ووصلت إلى صندوق الكهرباء، وتَكَهربتْ وشبعت موتًا».

«صح. أنتَ ذهبتَ وانطفأت الأضواء فورًا. في غمضة عين. لم ألحق حتى أن أركن السيارة».

«لقيتُهم هناك في الشارع».

«صحيح، لم تبتعد كثيرًا بالتأكيد».

«القطة نطّت من السلّم على صندوق الكهرباء. هكذا الأمر دائمًا. وهذي الحيوانات المسكينة لا تعرف شيئًا عن الكهرباء. لا تفهمها».

«للأسف».

«نعم، للأسف. قتلتها الكهرباء. كانت قطة جميلة. تتذكّر شكلها وهي تتسلّق السلّم؟ ما رأيتُ أجمل منها».

«لونها جميل».

«وماتت وشبعتْ موتًا. طيّب إذن، أنا ذاهب. يبدو أنّ الأمور واضحة. كان لا بدّ أن أتأكد بنفسي».

«صحيح».

«مع السلامة. مع السلامة سيّدتي».

«مع السلامة».

الفصل الخامس

لم نفعل أيّ شيء في مسألة القطّة، وصندوق الكهرباء، ولا أيّ شيء آخر. انسللنا إلى الفراش، وانفجَرَتْ. بكتْ، ثم اجتاحتْها رجفة في جسمها كلّه، وظللتُ ساعتين أحاول تهدئتها حتى هدأتْ. ظلّت بين ذراعيّ فترة، ثم بدأنا نتحدّث.

«أول وآخر مرة يا فرانك».

«صح. آخر مرة».

«كنا مجنونَين. مجنونَين رسميَّين».

«خرجنا منها بالحظ».

«الحظّ وحده هو الذي أنقذنا».

«أنا السبب».

«وأنا أيضًا».

«بل أنا. كانت فكرتي وأنت لم تكن تريد. في المرة القادمة سأسمع كلامك يا فرانك. أنت ذكيّ. أنا غبيّة».

«ولكن لن تكون هناك مرة قادمة».

«نعم. أبدًا».

«حتى لو أكملنا خطّتنا كانوا سيكتشفونها. دائمًا يكتشفونها. هم هكذا يكتشفون ما يحدث بحكم العادة. لاحظي كيف عرف الشرطيّ بسرعة أنّ في الأمر شيئًا. نشّف الدم في عروقي. بمجرد أن رآني واقفًا هناك عرف الأمر. وما دام عرف بهذه السهولة فكيف كنا سنخرج منها لو مات اليونانيّ؟»

«لا أظنّ أنني شيطانة فعلًا يا فرانك».

«نعم».

«لو كنتُ شيطانة ما ارتعبتُ بتلك السهولة. كنتُ مرعوبة جدًا يا فرانك».

«وأنا أيضًا كنتُ خائفًا جدًا».

«أتعرف ما كنتُ أريده حين انطفأت الأضواء؟ أنت فقط يا فرانك. لم أكن شيطانة قط في تلك اللحظة. كنتُ مجرّد طفلة صغيرة تخاف من الظلام».

«لكنني وقفتُ إلى جانبكِ، صح؟»

«كبرتَ في عيني يا فرانك. لا أدري ما كان سيحلّ بنا لولاك».

«لكنّ الكذبة كانت جيّدة، ها؟ انزلق وسقط في البانيو».

«نعم، وصدّقَها».

«أنا لا أحتاج إلا لنصف فرصة كي أخدع الشرطة مرة بعد مرة. كلّ ما في الأمر أن تكون عندكِ قصة جاهزة. لا بدّ أن تملأي الفراغات من عندكِ، ولكن بحيث تكون قريبة من الحقيقة قدر الإمكان. أنا أعرفهم جيدًا. واجهتهم مرات كثيرة».

«نعم، تصرّفتَ جيدًا وأنقذتنا، وستكون دائمًا معي تساعدني، صح يا فرانك؟»

«أنتِ الوحيدة التي لها قيمة عندي».

«لا أظن أني أريد حقًا أن أكون شيطانة».

«أنتِ طفلتي الحبيبة».

«بالضبط، أنا طفلتك الغبيّة. سأسمع كلامك من الآن فصاعدًا. تكون أنت العقل، وأنا أعمل. أستطيع أن أتكفّل بالعمل يا فرانك. وأنا شاطرة في هذا. هكذا ستمشي أمورنا».

«أكيد».

«ننام الآن؟»

«تستطيعين النوم الآن؟»

«هذي أول مرة ننام فيها معًا يا فرانك».

«فرحانة؟»

«شعور رائع. رائع».

«أعطيني قبلة النوم».

«هذا أحلى ما في الأمر كله».

في الصباح التالي، أيقظنا الهاتف. ردّت هي، وحين صعدتْ كانت عيناها تبرقان. «فرانك، تخيّل ماذا حدث».

«ماذا حدث؟»

«أصيب بكسرٍ في الجمجمة».

«خطير؟»

«لا، لكنه سيبقى في المستشفى. يريدونه أن يبقى هناك أسبوعًا تقريبًا. ويمكننا أن ننام معًا مرة أخرى، الليلة».

«تعالَي».

«ليس الآن. لا بدّ أن ننهض. علينا أن نفتح المطعم».

«تعالي هنا قبل أن أنزل فيكِ ضربًا».

«مجنون».

***

كان أسبوعًا سعيدًا. كانت تذهب عصرًا إلى المستشفى، لكننا في أغلب الوقت نكون معًا. أعطيناه استراحة هو أيضًا. كنا نفتح المطعم طوال الوقت، ونعتني بالمشروع جيدًا. وكان هذا مفيدًا بالطبع، فذات يوم جاء مئة تلميذ في ثلاث حافلات مدرسيّة يوم الأحد، وكانوا يريدون بعض المأكولات كي يأخذوها معهم في رحلتهم في الغابة، ولكن حتى من دونهم كسبنا مبلغًا جيّدًا. سجلّات المطعم لم تعرف شيئًا عن هذا طبعًا.

ذات يوم ذهبنا معًا بدلًا من أن تذهب بمفردها، وبعد أن خرجتْ من المستشفى ذهبنا إلى الشاطئ. هناك أعطوها مايوه أصفر وغطاء شعرٍ أحمر،

فلم أكد أعرفها حين خرجتْ. بدتْ مثل فتاة صغيرة. كانت أول مرة أدرك فيها أنها صغيرة. لعبنا في الرمل، ثم اقتربنا أكثر وتركنا الأمواج تعبث بنا. أحبُّ أن أضع رأسي أمام الموج، أمّا هي فتحبّ أن تضع قدميها. استلقينا هناك متقابلَين، نشبك أيدينا تحت الماء. رفعتُ بصري إلى السماء، فلم يكن هناك شيء سواها. فكّرتُ في الرب.

«فرانك».

«نعم؟»

«سيعود إلى المنزل غدًا. تعرف معنى ذلك؟»

«أعرف».

«سأضطر للنوم معه، بدلًا منك».

«هذا المفروض. لكنه حين يعود لن يجدنا».

«كنتُ أنتظر أن تقول ذلك».

«أنا وأنتِ والطريق فقط يا كورا».

«أنا وأنتَ والطريق».

«مجرّد متشرّدين».

«مجرّد غجريّين، ولكن سنكون معًا».

«بالضبط. سنكون معًا».

***

في صباح اليوم التالي حزمنا أغراضنا. هي التي حزمت الأغراض على أيّ حال. كنتُ قد أحضرت بذلةً معي، فأخذتُها، وبدا أنّ هذا كلّ ما عندي. أمّا هي فقد وضعتْ أغراضها في علبة قبّعات، ولما انتهتْ منها أعطتني إياها.

«ضعها في السيّارة من فضلك».

«السيّارة؟»

«لن نأخذ السيّارة؟»

«هذا إن كنتِ تريدين أن نقضي ليلتنا الأولى في السجن. سرقة الزوجة شيء، وسرقة السيّارة شيء آخر. هذه جريمة».

«أوه».

خرجنا. بيننا وبين محطّة الباصات حوالي ثلاثة كيلومترات، فكان لا بدّ أن نوقف سيّارة. كلّما مرّت سيّارة أشرنا إليها بأيدينا مثل بائع سيجار، لكنّها لم تقف. قد يقفون لرجلٍ وحده، أو لامرأة وحدها إن كانت حمقاء تجازف بالركوب معهم، أما إن كان الرجل والمرأة معًا فحظوظهما شحيحة. بعد حوالي عشرين دقيقة، توقّفَتْ. كنا قد مشينا نصف كيلومتر.

«فرانك، لا أقدر».

«ما الأمر؟»

«لا أحتمل هذا».

«ماذا؟»

«الطريق».

«يا مجنونة، أنتِ متعبة لا أكثر. انتظري هنا. سأجد شخصًا يوصلنا إلى المدينة. هذا ما نحتاج إليه، ثم نكون على ما يرام».

«كلا، لستُ متعبة. لكني لا أقدر. أبدًا».

«لا تريدين أن تكوني معي يا كورا؟»

«طبعًا أريد».

«وتعرفين أننا لا نستطيع العودة. لا يمكننا أن نعود إلى ما كنا عليه. لا بدّ أن تأتي».

«قلتُ لك يا فرانك أنا لستُ متشرّدة. لا أشعر بأني مثل الغجر. لا أشعر إلا بالخزي وأنا أقف هنا أشحت توصيلة».

«قلتُ لك سأحضر سيّارة تأخذنا إلى المدينة».

«وبعد ذلك؟»

«بعد ذلك نكون هناك. وتمشي الأمور».

«لا، لن تمشي. سنقضي ليلة في فندق، ثم نبدأ البحث عن عمل، ونسكن في مزبلة».

«والمكان الذي تركتِه ليس مزبلة؟»

«الأمر مختلف».

«يا كورا، لا تدعي هذا الأمر التافه يزعجك».

«أزعجني يا فرانك. لا يمكنني أن أستمر. وداعًا».

«اسمعيني دقيقة».

«وداعًا فرانك. سأعود».

ظلّت تحاول أن تأخذ العلبة، وأنا أقبض عليها، كي أحملها عنها على الأقل، لكنها أخذتها. ومضت تسير بالعلبة. كانت تبدو جميلة في البداية، بلباسها الأزرق وقبّعتها الزرقاء، أما الآن فقد أصبحت رثّة، وحذاؤها مغبرّ، ولم تكن تستطيع أن تمشي جيدًا من أثر البكاء. وفجأة وجدتُ نفسي أبكي أيضًا.

الفصل السادس

أخذتُ توصيلة إلى «سان بيرناردينو». هي بلدة على طريق السكك الحديدية، فكنتُ أنوي أن أتسلل إلى قطار بضائع متّجه إلى الشرق. لكنّي لم أفعل. صادفتُ رجلًا في نادي بلياردو، وبدأتُ ألعب معه لعبة «الكرة في الحفرة الجانبية». كان «عبيطًا» نزل إليّ من السماء، فقد كان معه صديق يجيد اللعب، غير أنه لا يجيده بما يكفي. لازمتهما أسبوعين، وخرجتُ بمئتين وخمسين دولارًا هي كلّ ما يملكانه. وعندها كان عليّ أن أغادر البلدة فورًا.

ركبتُ مع شاحنة إلى «مِكسيكالي»، ثم بدأتُ أفكّر في النقود التي كسبتها، إذ يمكننا أن نذهب إلى الشاطئ ونبيع النقانق أو شيئًا كهذا إلى أن يتجمّع لدينا مبلغ فنمضي في مشروع أكبر. هكذا نزلتُ من الشاحنة، وأخذتُ توصيلة أعود بها إلى «غلينديل». بدأتُ أحوم حول السوق الذي يشتريان منه الأغراض، راجيًا أن أصادفها هناك. بل إنني اتّصلتُ بها مرّتين لكنّ اليونانيّ هو الذي ردّ، فتظاهرتُ بأنّي أخطأت في الرقم. وفيما كنتُ أتجوّل حول السوق صادفتُ ناديًا قريبًا للبلياردو. كان هناك رجل يتدرّب وحده على إحدى الطاولات، والواضح من مسكته للعصا أنه مستجدّ. فبدأتُ أتدرّب على الطاولة المجاورة. قلتُ في نفسي إن كانت المئتان وخمسون دولارًا كافية لكشك نقانق، فسوف نبدأ بداية أفضل بكثير لو كسبت مئة دولار أخرى.

«ما رأيك أن نلعب كرة في الحفرة الجانبية؟»

«بصراحة لم ألعب هذه اللعبة كثيرًا».

«سهلة. تضع الكرة في الحفرة الجانبية».

«في كلّ الأحوال، يبدو أنّي لا أستطيع مجاراتك».

«نلعب مباراة ودّية إذن».

بدأنا نلعب، وتركته يفوز ثلاث أو أربع مرّات كي يثق بنفسه. وظللتُ أهزّ رأسي كأنّي لا أفهم كيف حدث هذا.

«تقول إنك لا تجاريني هاه؟ أقسم لك أنّ مستواي أفضل من ذلك. لا أدري كيف لا أفوز. ما رأيك أن نلعب على دولار واحد لكي نتحمّس أكثر؟»

«لا بأس. دولار واحد لن يضرّ».

اتفقنا على دولار واحد لكلّ جولة، وتركتُه يفوز في أربع أو خمس جولات، ربما أكثر. كنتُ أضرب الكرة وكأني شديد التوتّر، فكنتُ أمسح راحة يدي بالمنديل بين ضربة وأخرى كأنما كنتُ أتعرّق.

«يبدو أنّ ضرباتي ما تزال سيئة. ما رأيك أن نجعلها خمسة دولارات، لأسترجع نقودي، ثم نشرب؟»

«لا بأس، هي مجرد مباراة ودّية، ولا أريد أن آخذ نقودك. حسنًا لنجعلها خمسة دولارات، ثم نتوقف».

تركتُه يفوز في أربع جولات أو خمس، ولو رأيتموني وأنا أمثّل لظننتم أني سأصاب بسكتة قلبية وأشياء أخرى معها. كنتُ أبدو مصابًا بالغثيان.

«اسمع. أعرف جيدًا حين ألعب مع شخص لا أستطيع منافسته. ولكن ما رأيك لو نجعلها 25 دولارًا، كي أستعيد ما خسرته ثم نذهب لنشرب معًا؟»

«هذا مبلغ كبير علي».

«يا رجل، أنت تلعب بنقودي الآن، صح؟»

«آه نعم. طيب، نجعلها 25».

عندها بدأتُ ألعب. سدّدتُ ضربات لا يمكن حتى لهوبي[5] أن يسدّدها. أوقعتُ الكرات بضربات ثلاثيّة، وضربتُ الكرات بغيرها، وكانت ضرباتي متقنة لدرجة أنّ الكرة كانت تسبح على الطاولة، بل إني «نَطَرتُ» الكرة فوق أخرى وأدخلتها في الحفرة. أما هو فكانت ضرباته كلّها ضربات توم عازف

5- وِليَم فِردرك هوبي (William Fredrick Hoppe): بطلٌ أميركي في البلياردو لمع نجمه في النصف الأول من القرن العشرين. (المترجم)

البيانو الأعمى. كان يخفق في توجيه العصا، ويحشر كراته في زاوية صعبة، وحين يضرب كرة التسديد لا يصيب كرة أخرى، ويُدخل الكرة في الحفرة الخاطئة، ولم يضرب أي كرة بمساعدة الحواجز. حين خرجتُ من هناك كان قد أخذ المئتين وخمسين دولارًا التي كانت عندي بالإضافة إلى ساعتي التي اشتريتُها بثلاثة دولارات كي أعرف الوقت الذي قد تأتي فيه كورا إلى السوق. لعبتُ جيّدًا. ولكن ليس بما فيه الكفاية.

«هيي، فرانك!»

اليونانيّ يجري قاطعًا الشارع باتجاهي قبل أن أخرج حتى من الباب.

«فرانك، يا ابن اللذينَ، أين كنت، لماذا هربتَ مني في الوقت الذي أُصبتُ فيه وكنت أحتاجك جدًا؟»

تصافحنا. كان رأسه ما يزال ملفوفًا بالشاش، وفي عينيه نظرة غريبة، لكنّه كان يرتدي بذلة جديدة وقبّعة سوداء على جانبٍ من رأسه، وربطة عنق بنفسجيّة، وحذاء بنيًا، فيما تتدلّى سلسلة ساعته الذهبية من صديريّته، وسيجاره الكبير في يده.

«أوه، نِك! كيف حالكَ الآن يا رجل؟»

«أنا، بخير، كأنّي مولود جديد، ولكن لماذا هربتَ مني؟ زعلت جدًا منك، يا ابن اللذينَ».

«أنت تعرفني يا نِك. أبقى قليلًا، ثم أحنّ إلى التسكّع».

«توقيت سيّئ. ماذا تفعل الآن هاه؟ أكيد لا سيء يا ابن اللذين، تعال معي سأحكي لك كل سيء وأنا أستري سرائح اللحم».

«جئتَ وحدك؟»

«بلا غباء يا فرانك، بعد أن هربتَ مني مَن سيكون في المحل؟ بالتأكيد جئتُ وحدي. أنا وكورا لا نستطيع الخروج معًا. إن خرج أحدنا لا بدّ أن يبقى الآخر».

«طيّب ، هيا نقطع الشارع».

استغرق ساعة كاملة في شراء اللحم، فقد كان منشغلًا بإخباري كيف

كُسرت جمجمته، وكيف أنّ الأطباء لم يروا من قبل حالة مثل حالته، وحدّثني عن معاناته مع الذين شغّلهم عنده، فقد شغّل شخصين منذ أن تركته، طرد الأول بعد يوم من تعيينه، في حين هرب الثاني في اليوم الثالث وسرق إيراد المحل، وكيف أنه مستعد لأيّ شيء في سبيل أن أعود للعمل عنده.

«اسمع يا فرانك. سنذهب غدًا إلى سانتا باربرا، أنا وكورا. لا بدّ أن نخرج قليلًا، صح؟ سنذهب لمساهدة مهرجان هناك، وأنت معنا. مبسوط يا فرانك؟ تأتي معنا ونتحدّث عن رجوعك للعمل. ما رأيك في مهرجان سانتا باربرا؟»

«سمعتُ أنه ممتع».

«فتيات، وموسيقى، ورقص في السوارع، رائع. هاه يا فرانك، موافق؟»

«لا أدري».

«ستزعل كورا جدًا إذا عرفت أني رأيتك ولم أحضرك معي. ربما تكلّمك من طرف أنفها، لكنها تعتبرك رجلًا طيّبًا يا فرانك. هيا يا فرانك، سنذهب نحن الثلاثة. سنقضي وقتًا رائعًا».

«طيّب، أنا موافق إن لم يكن لديها مانع».

كان هناك ثمانية أشخاص أو عشرة في قاعة الطعام حين وصلنا، وكانت هي في المطبخ تغسل الصحون بأسرع ما يمكنها، كي تعود بأطباق جديدة.

«هيه كورا، انظري. انظري إلى من أحضرتُ معي».

«يا إلهي. من أين خرج؟»

«رأيتُه اليوم في غلينديل. سيذهب معنا إلى سانتا باربرا».

«مرحبا كورا. كيف حالك؟»

«أصبحتَ غريبًا عن المكان الآن».

مسحتْ يديها بسرعة، وصافحتْني، لكنّ آثار الصابون ما تزال في يدها. دخلتْ إلى قاعة الطعام لتقدّم أحد الطلبات، فيما جلستُ أنا واليونانيّ. كان يحاول أن يساعدها في الطلبات، لكنه كان متحمسًا جدًا لأن يريني شيئًا، فتركها تتكفّل بالطلبات بمفردها. كان دفترًا كبيرًا، ألصق في مقدّمته شهادة

المواطنة، ثم شهادة الزواج، ورخصة المحلّ في لوس أنجلس، وصورته في الجيش اليونانيّ، ثم صورته مع كورا في يوم الزفاف، ثم جميع الأخبار المنشورة عن الحادث الذي وقع له. وإن أردتم رأيي، فإنّ تلك الأخبار المنشورة في الصحف كانت تركّز على القطة أكثر منه، لكنّ اسمه كان مذكورًا فيها على أيّ حال، وذُكر أيضًا كيف نُقل إلى مستشفى غليندبل لتلقّي العلاج. أما الخبر المنشور في صحيفة لوس أنجلس اليونانية فقد كان تركيزه عليه هو أكثر من القطة، مع صورة له بالبذلة التي كان يرتديها حين كان يعمل نادلًا، وسيرة حياته. وبعد ذلك كانت صور الأشعّة. كانت قرابة ست صور، لأنهم كانوا يأخذون صورة جديدة كل يوم لمتابعة حالته. وقد ألصق ورقتين على الأطراف، ثم قصّ مربّعًا في الوسط أدخل فيه صورة الأشعّة كي يمكن إخراجها والنظر إليها تحت الضوء. بعد ذلك فواتير المستشفى، وفواتير الطاقم الطبي، وفواتير التمريض. صدّقوا أو لا تصدّقوا، لقد كلّفتْه تلك الخبطة على رأسه 322 دولارًا.

«جميل، هاه؟»

«رائع. كلّ شيء هنا مرتّب».

«هذا ليس مكتملًا طبعًا. سأرتّبها باللون الأحمر والأبيض والأزرق. أرتّبها بطريقة جميلة. انظر».

أراني تلك الزخرفات على صفحتين أخريين. كان يرسم الرتوش ثم يلوّنها بالأحمر والأبيض والأزرق. وَضع عَلمين أميركيين فوق شهادة المواطنة مع نِسر، وعلمين يونانيّين فوق صورة الجيش اليونانيّ مع نسرٍ آخر، وطائرَي قَمْري على غصنٍ فوق شهادة الزواج. لم يقرّر بعد ماذا سيضع فوق الأشياء الأخرى، فاقترحتُ عليه أن يضع فوق الأخبار قطةً تخرج من ذيلها نيران حُمرٌ وبِيضٌ وزُرق، فاستحسن الفكرة. لكنه لم يفهم حين قلتُ له أن يضع فوق رخصة المحلّ صقرًا ممسكًا بعلَمين إعلانيَّين مكتوب عليهما «تنزيلات»، ولم أجد جدوى من محاولة إفهامه. لكنني فهمتُ أخيرًا سبب تأنّقه وتمنّعه عن حمل صحون الطعام كعادته، وتصرّفه كما لو أنه شخصية مهمّة. لقد أصيب هذا اليونانيّ بكسرٍ في جمجمته، وهذا الشيء لا يحدث كل يوم

لشخصٍ مغفّل مثله. كان أشبه بالوافد الأجنبيّ الذي يفتح صيدليّة، فبمجرّد أن يضع تلك العلامة التي يُكتب عليها «صيدلانيّ» بالختم الأحمر، يرتدي بذلة رمادية ذات أطراف سود عند الصديرية، ثم لفرط شعوره بأهميّته لا يجد وقتًا حتى لخلط الأدوية، ولا يجرؤ حتى على لمس آيس كريم بالشوكولاتة. كان هذا بالضبط سبب تأنّق اليونانيّ. لقد حدث شيء مهم في حياته.

***

كان قد اقترب موعد العشاء حين اختليتُ بها. صعد هو كي يغتسل، وبقينا أنا وهي في المطبخ.

«كنتِ تفكّرين فيّ يا كورا؟»

«طبعًا. كيف أنساك بهذه السرعة؟»

«فكّرتُ فيكِ كثيرًا. كيف حالك؟»

«أنا؟ أنا بخير».

«اتصلتُ بكِ مرّتين، لكنّه ردّ على الهاتف وخفت أن أكلّمه. كسبتُ بعض المال».

«جميل، يسعدني أنّ تكون أمورك بخير».

«كسبتُ المال، ثم خسرته. كنتُ أفكّر في أن نستخدمه للبدء في مشروع، لكنّي خسرته».

«عجيب! لا أدري أين يذهب المال».

«متأكدة يا كورا أنكِ تفكرين فيّ؟»

«طبعًا».

«تصرّفاتك لا تقول ذلك».

«تصرّفاتي عادية».

«لن تعطيني قبلة؟»

«سنتعشّى بعد قليل. ينبغي أن تجهز».

هكذا جرى الأمر. هكذا جرى الأمر طوال المساء. أحضر اليونانيّ بعضًا

من نبيذه الحلو، وغنّى بضع أغنيات، وجلسنا نستمع، أما هي فكنتُ بالنسبة إليها مجرد شخص كان يعمل هنا، ولا تستطيع حتى أن تتذكر اسمه. كان ذلك أسوأ استقبال يمكن أن يلقاه المرء عند عودته.

***

حين جاء وقت النوم، تركتهما يصعدان، ثم خرجتُ أفكّر فيما إذا كنتُ سأبقى وأرى إن كنت «سأتصافى» معها مرة أخرى، أم أرحل وأنساها. مشيتُ مسافةً، لا أدري مقدارها تحديدًا أو المكان الذي وصلتُ إليه، لكنني بعد فترة سمعتُ جلبةً آتية من البيت. عدتُ، فلمّا اقتربتُ سمعتُ شيئًا من حديثهما. كانت تصرخ فيه وتقول له إنني لا بدّ أن أرحل. وكان هو يتمتم بشيء، ربما كان يقول إنه يريدني أن أبقى وأعود للعمل. كان يحاول أن يُسكتها، لكنْ من الواضح أنها كانت تصرخ كي أسمعها. لو أنني كنتُ في غرفتي (كما كانت تعتقد) لسمعتُها بوضوح، بل إنني حتى في مكاني هذا سمعتُ الكثير من كلامها.

وفجأة توقّف الكلام. انسللتُ إلى المطبخ، ووقفتُ هناك أصيخ السمع. لم أسمع شيئًا، فقد كنتُ مضطربًا جدًا، وكلّ ما سمعتُه صوت قلبي، دُم دُم، دُم دُم، دُم دُم. قلتُ في نفسي غريبٌ أن يكون صوت قلبي هكذا، ثم فجأةً أدركتُ أنّ هناك قلبين اثنين في المطبخ، ولهذا كان الصوت غريبًا.

أشعلتُ الضوء.

كانت واقفة هناك، ترتدي كيمونو أحمر اللون، لونها «مخطوف» كالحليب، تحدّق بي، وفي يدها سكين طويلة. مددتُ يدي وأخذتُ السكين منها. وحين تحدّثتْ كان حديثها همسًا، كأفعى تخرج لسانها وتدخله مرة بعد مرة.

«لماذا رجعت؟»

«كان لا بدّ أن أرجع».

«لا. كان بإمكاني أن أمضي في الموضوع. لكي أنساك. والآن ترجع. عليك اللعنة، لماذا رجعت؟!»

«تمضين في أيّ أمر؟»

«في السبب الذي جعله يصنع ذلك الدفتر. كي يريه أولاده! والآن يريد طفلًا. يريد طفلًا فورًا».

«لماذا تركتِني؟»

«ولماذا أذهب معك؟ كي ننام في عربات القطار؟ لماذا أذهب معك؟ قل لي».

لم أستطع قول شيء. فكّرت في المئتين وخمسين دولارًا، ولكن ما الفائدة في أن أخبرها بأنّ المبلغ كان عندي بالأمس ثمّ خسرته في لعبة بلياردو؟

«لا فائدة منك. أعرف هذا. أنت عديم الفائدة. لماذا لا ترحل إذن وتتركني في حالي؟ لماذا لا تتركني في حالي؟»

«اسمعيني. ماطليه في موضوع الطفل هذا. ماطليه، وسوف ندبّر أمرنا. ربما لا فائدة كبيرة مني، لكنني أحبك يا كورا، أقسم لكِ أنّي أحبك».

«تُقسم، ثم ماذا؟ سيأخذني إلى سانتا باربرا كي أقتنع بطلبه وأنجب له الطفل، وأنت..أنت ستذهب معنا. ستسكن في الفندق نفسه معنا! ستذهب معنا في السيّارة نفسها. سوف—»

توقّفتْ. ووقفنا هناك ننظر بعضنا إلى بعض. كنا ندرك معنى أن نكون نحن الثلاثة في السيّارة. اقتربنا بعضنا من بعض شيئًا فشيئًا، إلى أن تلامسنا.

«يا إلهي، فرانك، ألا يوجد مخرج آخر لنا غير هذا؟»

«كنتِ ستطعنينه بسكين قبل قليل».

«كلا، كانت السكين لي أنا».

«كورا، هذا قدرنا. جرّبنا كل طريقة أخرى».

«لا أريد أن أنجب طفلًا يونانيًا عَفِنًا يا فرانك. لا أستطيع. الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أنجب منه هو أنت. ليتك كنت تتحمّل المسؤولية. أنت ذكيّ، ولكن لا يُعتمد عليك».

«لا يُعتمد عليّ، لكنني أحبك».

«وأنا أحبك».

«ماطليه. الليلة فقط».

«طيّب. هذه الليلة فقط».

الفصل السابع

والدربُ طويلٌ طويلٌ..دوّار
إلى أرض أحلامي
حيث العنادل تشدو
والقمرُ الأبيض وضّاء.
وليلُ انتظارٍ طويل طويل
حتى تتحقّق أحلامي كلّها
ويأتي اليوم الذي أمضي فيه
في ذلك الدرب الطويل معك[6].

«يبدو أنّ مزاجهما عالٍ جدًا الليلة».

«أكثر من اللازم».

«ما دمتِ أنتِ التي تسوقين السيّارة سيكونان بخير».

«أتمنى. المفروض أن لا أخرج مع سكرانَين، ولكن ما باليد حيلة. قلتُ لهما لن أخرج معكما، لكنّهما كانا سيخرجان وحدهما».

«لو خرجا وحدهما لانقلبت السيارة بهما».

«بالضبط. لذلك جئت معهما. لا يوجد حل آخر».

«نعم، أحيانًا نحتار في القرارات التي نأخذها. دولار وستّون للبنزين من فضلك. زيت المحرّك تمام؟»

6- أغنية شهيرة من أغاني الحرب العالمية الأولى، من تأليف ستودَرد كِنغ وألحان ألونزو زو إليوت.

«أعتقد نعم».

«شكرًا. ليلة سعيدة».

ركبتْ كورا السيّارة، واتخذتْ مقعد القيادة مرة أخرى، فيما واصلنا الغناء أنا واليونانيّ، ومضينا. كان هذا كله جزءًا من الخطة. كان لا بدّ أن أكون مخمورًا، فقد تعلّمتُ من الحادثة السابقة أنه لا يمكن ارتكاب جريمة متكاملة. جريمتنا هذه المرة ستكون خرقاء جدًا، لدرجة أنها لن تكون جريمة. ستكون مجرّد حادثة سير عادية، فيها رجلان مخموران، وخمر في السيّارة، والبقيّة المعروفة. بطبيعة الحال حين بدأتُ أشرب كان لا بدّ أن يشرب هو أيضًا، ففعل ما أردتُه منه بالضبط. توقفنا للتزوّد بالوقود كي يكون لدينا شاهد على أنها كانت في وعيها، وأنها لم تكن تريد الذهاب معنا أصلًا، وأنها لم تشرب معنا، لكي تقود السيّارة. قبل ذلك كان الحظّ في صفّنا؛ فقبل أن نغلق المحلّ جاء رجل في التاسعة مساء يبحث عن شيء يأكله، ووقف في الشارع ينظر إلينا ونحن نغادر. رأى كلّ شيء. رآني وأنا أحاول أن أشغّل السيّارة، وانطفأتْ مرّتين. ثم سمع الجدال بيني وبين كورا حين كانت تقول لي إنني مخمور ولا ينبغي أن أقود السيّارة. رآها تخرج من السيّارة، وسمعها وهي تقول إنها لا تريد الذهاب معنا. ورآني أحاول قيادة السيّارة، وحدي مع اليونانيّ. ثم رآها وهي تجبرنا على تغيير مكانينا، فذهبت أنا إلى المقعد الخلفي وجلس اليونانيّ في المقعد الأمامي، ثم رآها تقود السيّارة بنفسها. كان اسمه جِف پاركر، يعمل في تربية الأرانب في حيّ «إنسينو». أخذتْ كورا بطاقته حين قالت له إنها قد تجرّب تقديم وجبات بالأرانب. كنا نعرف أين نجده حين نحتاج إليه.

***

غنّينا أنا واليونانيّ أغاني «أمّي العزيزة» و«ابتسم ابتسم ابتسم» و«على جدول الطاحونة القديمة»، وما لبثنا أن وصلنا إلى لافتة كُتب عليها «إلى شاطئ ماليبو». توقّفتْ هناك. كان المفروض أن تُكمل طريقها. فهناك طريقان يقودان إلى الساحل. الأول يسير لمسافة ستة عشر كيلومترًا داخل المدينة، وهو الذي كنا نسير فيه. أما الثاني فكان الطريق الساحليّ إلى يسارنا. ثم يلتقي الطريقان في «ڤنتورا» ويسيران بمحاذاة البحر إلى سانتا باربرا وسان فرانِسسكو وأيّ مكان آخر تودّ الذهاب إليه. لكنّ الخطة كانت أنها لم تر

شاطئ ماليبو من قبل، هذا الشاطئ الذي يسكن فيه نجوم السينما، لذلك تريد أن تنزل من هذا الطريق نحو الشاطئ مسافة ثلاثة كيلومترات لتلقي نظرة، ثم تعود أدراجها وتكمل الطريق إلى سانتا باربرا. أما الحقيقة فهي أنّ هذا هو أسوأ تقاطع طرق في لوس أنجلس، ولم يعد أحد يُفاجأ بوقوع حوادث فيه، حتى الشرطة. المكان مظلم، موحش، ولا توجد إلى جانبيه منازل أو أيّ شيء، فأصبح المكان المناسب لخطّتنا.

لم يلاحظ اليونانيّ شيئًا. مررنا من مَصيَف يسمّونه «بحيرة ماليبو» في المرتفعات، وكان يضجّ برقصٍ وغناء في النوادي الليلية، في حين يذهب العشّاق في نزهات على القوارب. صرختُ أحيّيهم، وكذلك فعل اليونانيّ. لم يكن ما فعلناه مهمًّا، لكنه مجرد علامة نتركها في طريقنا في حال قرّر أحدهم أن يتقصّى وراءنا.

انطلقنا في صعود المرتفع الطويل الأول في الطريق باتجاه الجبال. كان يسير إلى مسافة خمسة كيلومترات تقريبًا، وكنتُ قد أرشدتُها إلى طريقة القيادة في هذا المرتفع. كانت تقود بغيار السرعة الثاني معظم الوقت، فهناك منحنيات حادّة بعد كلّ خمسين قدمًا، وإن لم تنقل الغيار إلى الثاني فسوف تفقد السيّارة سرعتها. كما أننا أردنا أن ترتفع حرارة السيّارة. كان لا بدّ أن يكون كلّ شيء مضبوطًا. وكنا حريصين على أن تكون لدينا تفاصيل كثيرة نقولها لاحقًا.

عندها نظرَ اليونانيّ من النافذة ورأى الظلام وذلك المكان المقفر في الجبال دون أي منازل أو محطات وقود أو أي شيء، فبدأ يتذمّر ويصرخ.

«توقفي، توقفي. عودي مرة أخرى، خرجنا عن الطريق».

«كلا، لم نخرج عن الطريق. أعرف أين نحن. هذا الطريق يقودنا إلى شاطئ ماليبو. قلتُ لك أريد أن أراه، ألا تذكر؟»

«طيّب، سوقي على مهلك».

«أسوق على مهل».

«على مهلك أكثر، لا نريد أن نموت».

***

وصلنا إلى قمة المرتفع، وبدأنا في المنحدر. فأطفأتِ المحرّك. حين تتوقّف المروحة تسخنُ السيارات بسرعةٍ عدّة دقائق. وحين وصلنا إلى الأسفل شغّلتِ المحرّك مرة أخرى. نظرتُ إلى مقياس الحرارة. كان قد وصل إلى 200 درجة. وبدأنا الصعود في المرتفع التالي فأخذت الحرارة ترتفع.

«حاضر، حاضر».

كانت هذه هي الإشارة المتفق عليها بيننا. هي جُملة قد يقولها أي رجل في أي وقت ولا تثير أي انتباه. أوقفتْ كورا السيّارة في جانب الطريق. من تحتنا هوّة عميقة لدرجة أنه لا يمكن رؤية قاعها. لا بدّ أنها كانت على ارتفاع خمسمئة قدم.

«أعتقد من الأفضل أن أتركها تبرد قليلًا».

«طبعًا، ضروري. انظر يا فرانك. انظر إلى درجة الحرارة».

«كم؟»

«مئتان وخمسة. السيّارة ستغلي في أيّ لحظة».

«دعها تغلي».

وهنا التقطتُ المفتاح الإنجليزي. كنتُ أحتفظ به بين قدميّ. ولكنْ حينها رأيتُ أضواء سيّارة هناك في المرتفع. اضطُررت إلى الانتظار. كان عليّ أن أؤجل الأمر دقيقة إلى أن تمرّ السيّارة.

«هيّا يا نِك. غنِّ لنا».

نظر إلى تلك الأراضي الوعرة، لكنه لم يشعر برغبة في الغناء. بعد ذلك فتح باب السيّارة وخرج. سمعنا صوته وهو يستفرغ خلف السيّارة. كان هناك حين مرّت السيّارة. نظرتُ إلى رقمها كي أحفظه. ثم انفجرتُ ضاحكًا. فاستدارتْ تنظرُ إليّ.

«لا بأس. هكذا نعطيهم شيئًا يتذكّرونه. سيقولون كان هناك رجلان على قيد الحياة وقت مرورنا».

«هل أخذت الرقم؟»

«2R-5801».

«2R-5801، 2R-5801. تمام، حفظتُه أيضًا».

«تمام».

عاد نِك من خلف السيّارة، وبدا أنه يشعر بتحسّن.

«سمعت؟»

«سمعت ماذا؟»

«حين تضحك. هناك صدى. صدى جميل».

ثم ألقى بلحنٍ عالي النغمة. لم تكن أغنية، مجرّد نغمة عالية كأنها من أسطوانة كاروسو. لكنه أوقفها بسرعة وأخذ ينصت. وبالفعل عاد الصوت، واضحًا، ثم توقّف، كما فعل هو.

«يشبه صوتي؟»

«طبق الأصل يا ولد. نفس الصوت».

«يا سلام. جميل».

وقف هنالك خمس دقائق، يُلقي بنغمات عالية ويستمع إليها حين تعود. كانت أول مرة يسمع فيها صوته. كان مسرورًا، مثل غوريلا تنظر إلى نفسها في المرآة. ظلّتْ كورا تنظر إليّ. لا بد أن نبدأ. بدأتُ أتظاهر بالانزعاج.

«كفى! تعتقد أنه لا شغل عندنا سوى الاستماع لك وأنت تصرخ لنفسك طوال الليل؟ هيا اركب».

«تأخّر الوقت يا نِك».

«طيّب، طيّب».

ركب السيّارة، لكنّه أخرج رأسه من النافذة وأطلق نغمةً أخرى. ثبتُّ قدميّ، وبينما كان ذقنه ما يزال على حاجز النافذة هويتُ بالمفتاح الإنجليزي على رأسه. انفلق رأسه، وشعرتُ به يتكسّر. تلوّى والتفّ على المقعد مثل قطةٍ فوق أريكة. مرّ الوقت بطيئًا كأنه سنة، إلى أن سكنتْ حركاته. وعندها ازدردتْ كورا لعابها بصوتٍ غريب ينتهي بأنين، ففي تلك اللحظة عاد رجعُ صوته. لقد أخذ الصدى النغمةَ العالية، كما فعل هو، وارتفع، وتوقّف، وانتظر.

الفصل الثامن

لم نقل شيئًا. كانت تعرف المطلوب منها. قفزتْ إلى المقعد الخلفي، وقفزتُ أنا إلى المقعد الأمامي. نظرتُ إلى المفتاح الإنجليزي تحت ضوء «التابلوه». عليه بضع قطرات دم. فتحتُ زجاجة نبيذ وصببتُه عليه حتى اختفى الدم. وأخذتُ أصبّ النبيذ إلى أن بلّل نِك. ثم مسحتُ المفتاح بجزءٍ جاف من ثيابه، وناولتها إياه، فوضعتْه تحت المقعد. صببتُ المزيد من النبيذ فوق المكان الذي مسحتُ فيه المفتاح، ثم كسرتُ الزجاجة في الباب، ووضعتها فوق اليونانيّ. بعدها شغّلتُ السيّارة. فغرغرَ ما تبقّى من النبيذ في داخل الزجاجة وهو يخرج منها.

سرتُ بالسيارة قليلًا، ثم غيّرتُ غيار السرعة إلى الثاني. لم أستطع أن أسقطها من تلك الهوّة التي تبلغ مسافتها خمسمئة قدم، حيث كنّا. كان علينا أن نفعل ذلك لاحقًا، ناهيك عن استحالة أن نبقى أحياء لو سقطت السيارة من تلك المسافة. قدتُ ببطء، في الغيار الثاني، إلى أن وصل الوادي إلى موضع معيّن، فكانت الهوّة مسافة خمسين قدمًا فقط. حين وصلتُ إلى هناك، قدتُ السيّارة إلى الحافة، ووضعتُ قدمي على الفرامل، وأنا أعالج الفرامل اليدوية. وبمجرّد أن جاوزتْ العجلةُ الأمامية اليمنى الحافة، ضغطتُ بقوّة على الفرامل. توقّفتْ السيّارة. هكذا كنتُ أريدها. كان لا بدّ أن تكون السيّارة «شغّالة»، وعلى الغيار، لكنّ المحرّك الميّت سوف يوقفها في مكانها ريثما ننتهي من عملنا.

خرجنا من السيّارة. وضعنا أقدامنا على الإسفلت مباشرة، لا على الكتف الرملي للشارع كي لا نترك آثارًا. ناولتني صخرة ولوح خشب كنتُ قد

أحضرته معي. وضعتُ الصخرة تحت المحور الخلفي، وكانت مناسبةً تمامًا لأنني اخترتُها لهذا الغرض. أدخلتُ اللوح فوق الصخرة وتحت المحور. ثم ضغطتُ بجسمي عليها. مالتِ السيّارة أكثر. وبدأتُ أتعرّق. ها نحن هنا، ومعنا رجل ميّت في السيّارة، فماذا لو لم نستطع أن نُسقطها؟

ضغطتُ مرةً أخرى، وكانت كورا هذه المرّة معي. ضغطنا معًا. وفجأة، كنا هناك، منبطحَين على الشارع، في حين كانت السيّارة تتقلّب على ذلك الوهد وتصطدم بصوتٍ قويّ يُسمع من على بعد كيلومتر ونصف.

توقّفتِ السيّارة. ما تزال الأضواء تعمل، لكنّ السيّارة انطفأت. كان هذا هو الخطر الأكبر. فلو أنّ السيارة احترقت، لا بدّ أن نكون قد احترقنا معها. التقطتُ الصخرة وألقيتُ بها من الهوّة. ثم التقطتُ لوح الخشب وركضتُ في الشارع مسافةً، ثم ألقيتُ به. لم يقلقني أمره، فهناك قطع من الخشب في كلّ مكان تسقط من شاحنات ثم تدهسها السيّارات فتكسّرها، وهذه ستكون واحدة منها. كنتُ قد تركتها في الشارع طوال النهار، فظهرت عليها علامات إطارات، وأطرافها مكسّرة.

عدتُ راكضًا وحملتُها ونزلتُ في الوادي معها. فعلتُ هذا كي أخفي الآثار. لم تهمّني آثار قدميّ أنا، إذ قلتُ في نفسي عمّا قريب سيأتي رجال كثر، لكنّ كعبيها الحادّين لا بد أن يشيرا إلى الاتجاه الصحيح لو فتّش أحدٌ وراءنا.

أجلستُها. كانت السيّارة معلّقة على عجلتين، في منتصف المسافة في الوادي. كان ما يزال هناك، لكنه الآن ساقط على الأرض. كانت زجاجة النبيذ محشورة بينه وبين المقعد، ثم غَرغرتْ ونحن ننظر. كان أعلى السيّارة مهشّمًا، والحاجزان ملتويين. حاولتُ فتح الأبواب، فمن الضروريّ أن أدخل وأن تجرحني الزجاجة، فيما هي تصعد الوادي طلبًا للمساعدة. انفتحت الأبواب.

بدأتُ أعبث بقميصها كي أنزع الأزرار، كي تبدو في حالة مزرية. كانت تنظر إليّ، واختفت الزرقة من عينيها، فأصبحتا سوداوين. كنتُ أحسّ بأنفاسها تتلاحق. ثم توقّفتْ، ومالت قريبًا مني.

«قطّعني! قطّعني!»

قطَّعتُها. وضعتُ يدي في قميصها ومزّقته. كانت عارية من حلقها إلى البطن.

«كلّ هذا صار حين كنتِ تتسلّقين للخروج من السيّارة. كان القميص محشورًا في مقبض الباب».

بدا صوتي غريبًا، كأنما يخرج من «فونوغراف» صفيحيّ.

«أمّا هذه الإصابة فلا تعرفين من أين جاءت».

ألقيتُ بنفسي للأمام وضربتُها في عينها بأقوى ما لديّ. سقطتْ أرضًا. كانت هناك عند قدميّ، وعيناها تلمعان، ونهداها يرتعشان، مشدودان، يشيران ناحيتي. كانت هناك في الأسفل، والأنفاس تهدر في حلقي كالحيوان، ولساني منتفخ في فمي ينبض بالدم.

«نعم، فرانك، نعم».

ولم أدرِ بنفسي إلا وقد نزلتُ عندها ونحن ننظر بعضنا في عينَي بعض، متعانقين، نجاهد كي نلتصق أكثر. لو أنّ الجحيم انفتحت أمامي حينئذ، لما كان إحساسي مختلفًا. لا بدّ أن أضاجعها، حتى إن شُنقت.

ضاجعتُها.

الفصل التاسع

بقينا هناك بضع دقائق، كما لو أننا في خَدَر. كان المكان ساكنًا للغاية، فلا تسمع صوتًا سوى تلك الغرغرة القادمة من داخل السيّارة.

«والآن ماذا يا فرانك؟»

«أمامنا مشوار صعب يا كورا. يجب أن تتقني دورك من الآن. واثقة أنك تستطيعين؟»

«بعد هذا، يمكنني أن أفعل أي شيء».

«الشرطة ستلاحقك. سيحاولون أن يحطّموكِ. جاهزة لهم؟»

«أعتقد ذلك».

«ربما يتّهمونكِ بشيء. لا أعتقد أنهم يستطيعون ولدينا كلّ هؤلاء الشهود. ولكن ربما يفعلون. ربما يتّهمونكِ بالقتل غير المتعمّد وتقضين سنة في السجن. قد يصل الأمر إلى هذا. هل تتحمّلين ذلك؟»

«ما دمتَ ستنتظرني إلى أن أخرج».

«سأكون في انتظارك».

«إذن أستطيع».

«لا تقلقي عليّ. أنا سكران، ولديهم فحوصات ستثبت هذا. سأهذي ببعض التخاريف كي ألخبطهم، وحينما أفيق وأقول لهم ما حدث بطريقتي سيصدّقونني».

«طيّب».

«تذكّري أنكِ غاضبة مني. لأنني سكران. لأنني السبب في كلّ هذا».

«نعم، أعرف».

«اتفقنا».

«فرانك».

«نعم؟»

«شيء واحد مهمّ فقط. أن يكون بيننا عشق. ما دمنا نحبّ بعضنا بعضًا فلا شيء آخر يهم».

«وهل هذه هي الحقيقة فعلًا؟»

«سأقولها أولًا. أحبّك يا فرانك».

«أحبك يا كورا».

«تعال قبّلني».

***

قبّلتُها، وعانقتها، ثم رأيتُ ومضة ضوء على التلّ في مقابل الوادي.

«اصعدي الآن. كوني واثقة أنكِ ستنجحين».

«سأنجح».

«اطلبي النجدة فقط. فأنتِ لا تعرفين أنه ميّت حتى الآن».

«أعرف».

«سقطتِ بعد أن خرجتِ من السيّارة. ولهذا السبب ملابسك مغبرّة».

«نعم. مع السلامة».

«مع السلامة».

بدأتْ تصعد نحو الشارع، وهممتُ إلى السيّارة. ثم فجأةً انتبهتُ على أنّ قبّعتي ليست معي. كان لا بدّ أن أكون في السيّارة، والقبعة معي. بدأتُ أفتّش عنها. كانت السيّارة تقترب أكثر فأكثر من السقوط. ها هي على بعد مَيلةٍ أو ثلاث، وقبّعتي ليست معي، ولا يوجد أثرٌ في جسمي. استسلمتُ، ومشيتُ نحو السيّارة، ثم سقطتُ. وضعتُ قدمي فيها. أمسكتُ بها، ثم قفزتُ داخلها. وما كاد جسمي يصل إلى أرضية السيّارة حتى سقطتْ، وأحسستُ بالسيّارة تنقلب فوقي. كان هذا آخر شيء أذكره فترةً من الوقت.

***

بعد ذلك، كنتُ على الأرض، ومن حولي لَغطٌ كثير. ذراعي اليسرى تؤلمني جدًا فكنتُ أصرخ كلّما حاولتُ أن ألمسها، وكذلك ظهري. في رأسي صوتٌ يرتفع حدّةً ثم يختفي. حين يحدث هذا كانت الأرض تسقط من تحتي، ويخرجُ ما كنتُ قد شربتُه. كنتُ هناك ولم أكن هناك، لكنني كنتُ أحسّ بما يكفي لأتقلّب على جنبيّ وأرفس. كان هناك تراب على ملابسي أنا أيضًا، فكان لا بدّ أن يظهر سببٌ لذلك.

***

بعد ذلك أحسستُ بصريرٍ حادّ في أذنيّ، وكنتُ في سيارة إسعاف. كان هناك شرطيّ جالسًا عند قدميّ، وطبيب يعالج ذراعي. وما إن رأيت ذراعي حتى فقدتُ الوعي مرة أخرى. كنتُ أنزف بشدّة، وما بين المعصم والمرفق التواء يشبه برعمًا مكسورًا. كانت ذراعي مكسورة. وحين أفقتُ ثانية وجدتُ الطبيب ما يزال يعالجها، وفكّرتُ في ظهري. هززتُ قدميّ كي أتأكّد من أنني لست مشلولًا.

***

ظلّ الصرير يفيقني، ونظرتُ حولي، فرأيتُ اليونانيّ. كان على السرير الآخر.

«أهلين يا نِك».

لم يقل أحد شيئًا. نظرتُ حولي أكثر لكنّني لم أر أثرًا لكورا.

***

بعد فترةٍ توقّفوا، وحملوا اليونانيّ. انتظرتُ دوري، لكنهم لم يحملوني. أدركتُ حينها أنه ميّت، فلا داعي لأن أهذي بتخاريف عن القطط لخداعهم. لو أنهم حملونا معًا، لكنّا في المستشفى. أما وقد حملوه وحده، فقد كانت المشرحة.

***

أكملنا طريقنا، وحين توقّفوا حملوني. أدخلوني، ووضعوا النقّالة على سرير متحرّك، ثم أخذوني إلى غرفة بيضاء معقّمة. وعندها استعدّوا لعلاج

ذراعي. أتوا بآلةٍ تنفث الغاز لتخديري، لكنّهم اختلفوا. كان هناك طبيب آخر قال إنه طبيب السجن، فاستاء أطبّاء المستشفى. أدركتُ ما يدور. كان الأمر يتعلق بفحوصات الكحول. فلو أنّهم أعطوني المخدّر أولًا، سيفسد اختبار الأنفاس، وهو الأهم. خرج طبيب السجن وطلب مني أن أنفخ في أنبوب زجاجي موصول بشيء يشبه الماء لكنه تحوّل إلى اللون الأصفر حين نفختُ. بعد ذلك سحب مني عيّنة دم، وعيّنات أخرى وضعها في زجاجات عبر قمع. وعندها أعطوني المخدّر.

***

حين بدأتُ أفيق وجدتُ نفسي في غرفةٍ، على سرير، ورأسي ملفوف بأربطة، وكذلك ذراعي معلّقة برافعة. أما ظهري فكان مملوءًا بأشرطة لاصقة، فلم أكد أستطيع الحركة. كان هناك شرطيّ، يقرأ الصحيفة الصباحية. كان رأسي يؤلمني جدًا، وظهري كذلك، وذراعي تستشيط ألمًا. بعد مدّة، جاءت ممرّضة وأعطتني قرصًا، فنمت.

***

استيقظتُ عند الظهيرة، فقدّموا لي شيئًا آكله. بعدها جاء شرطيّان آخران، ووضعوني على نقّالة وحملوني في سيارة إسعاف أخرى.

«إلى أين نذهب؟»

«التحقيقات الجنائية».

«التحقيقات الجنائية. أليس هذا حين يموت شخص ما؟»

«بالضبط».

«هذا الذي كنت أعمل حسابه. أن يموتا في الحادث».

«واحد منهما فقط».

«من؟»

«الرجل».

«أوه. والمرأة إصابتها خطيرة؟»

«ليست خطيرة».

«لكن إصابتي تبدو خطيرة، صح؟»

«انتبه. صحيح لا مانع عندنا إذا كنت تريد أن تتكلم، ولكن ما تقوله قد يُحسب عليك في المحكمة».

«صحيح. شكرًا».

توقفنا أمام محلّ حانوتيّ في هوليوود، وحملوني إلى الداخل. كانت كورا هناك، في حالة يُرثى لها. كانت ترتدي قميصًا أعارتها إياه شرطيّة، وكان منتفخًا عند بطنها كما لو أنه محشوّ بالقش. حذاؤها وملابسها مغبرّة، وعينها منتفخة في المكان الذي ضربتُها فيه. كانت الشرطيّة معها. قاضي التحقيق جالس وراء طاولة، وإلى جانبه رجل يبدو سكرتيرًا. في جانب من الطاولة ستة رجال يبدون منزعجين، ورجال شرطة واقفون فوق رؤوسهم. كانوا هيئة المحلّفين. وكان هناك بضعة أشخاص آخرين يقودهم رجال الشرطة إلى حيث ينبغي أن يقفوا. أما الحانوتيّ فكان يمشي على أطراف أصابعه، ومن وقتٍ إلى آخر يدفع بكرسيّ كي يجلس أحدهم. جاء بكرسيَّين لكورا والشرطيّة. وفي جانب واحد من المكان طاولة فوقها شيء مغطّى.

وفور أن أدخلوني ووضعوني في المكان الذي حدّدوه، فوق طاولة، خبط القاضي بقلمه فبدؤوا الإجراءات. أولًا، التعرّف على الجثّة. بدأتْ كورا تبكي حين رفعوا الغطاء، حتى أنا أزعجني المنظر. وبعد أن نظرنا أنا وهي، ونظر المحلّفون، وضعوا الغطاء فوقه مرة أخرى.

«تعرفين هذا الرجل؟»

«زوجي».

«واسمه؟»

«نِك پاپاداكِس».

بعد ذلك جاء دور الشهود. تحدّث رقيب الشرطة وقال إنه تلقّى البلاغ وذهب بمعيّة شرطيين بعد أن طلب الإسعاف، ثم أرسل كورا في سيّارة، وأرسلني أنا واليونانيّ في الإسعاف، ثمّ تُوفي اليونانيّ في الطريق، فتوقّفت سيارة الإسعاف عند المشرحة. بعد ذلك قال شخصٌ ريفيّ يُدعى رايت إنه كان قادمًا بسيّارته عند المنعطف، وسمع صوت امرأة تصرخ، ثم سمع

ارتطامًا، ورأى السيارة تنقلب وتنقلب وأضواؤها مشعلة. رأى كورا في الطريق تلوّح له طلبًا للنجدة، ونزل معها إلى السيّارة لمحاولة إخراجي أنا واليونانيّ منها. لكنه لم يستطع، فقد كانت السيّارة فوقنا، فأرسل أخاه الذي كان معه في السيّارة لطلب المساعدة. بعد مدّة، جاء مزيد من الأشخاص والشرطة، وحين تكفّلت الشرطة بالأمر استطاعوا رفع السيّارة عنا، وحملونا إلى سيّارة الإسعاف. بعد ذلك أدلى أخو رايت بالشهادة نفسها، وقال إنه هو الذي أحضر الشرطة.

بعد ذلك قال طبيب السجن إنني كنتُ مخمورًا، وإنّ تقرير الطبّ الشرعي أثبت أنّ اليونانيّ كان مخمورًا كذلك، أما كورا فلا. وبعد ذلك حدّد موضع الإصابة التي أدّت إلى وفاة اليونانيّ. عندها استدار القاضي ناحيتي وسألني إن كنتُ أريد أن أدلي بشهادتي.

«نعم، سيدي».

«لكن تذكّر أنّ أي شيء تقوله قد يُستخدم ضدّك، وأنك غير مجبر على الإدلاء بشهادتك».

«ليس عندي ما أخفيه».

«طيّب. ما الذي تعرفه عن الحادث؟»

«كلّ ما أعرفه أنني أولًا كنتُ أسير في طريقي، ثم شعرتُ بالسيّارة تسقط، وضربني شيء ما، وهذا كلّ ما أذكره إلى أن وصلتُ إلى المستشفى».

«كنتَ أنتَ تسير في طريقك؟»

«نعم، سيدي».

«تقصد أنك أنت الذي كنت تسوق السيّارة؟»

«نعم سيدي. أنا كنتُ أسوقها».

كانت هذه كذبة سأسحبها لاحقًا حين نكون في مكان يُحسب فيه لهذا الكلام حساب، لا هنا. قلتُ في نفسي إنْ اختلقتُ قصةً، ثم تراجعتُ وقلتُ قصة أخرى، فسوف يبدو أنّ القصة الثانية هي الحقيقية، أمّا إن سلّمتُ القصة الغبيّة منذ البداية، فسوف تبدو غبيّة. تعمّدتُ أن أبدو كذّابًا، منذ البداية. ولكن

إنْ لم أكن أنا الذي أقود السيّارة، فلن يشكّل هذا أيّ فرق ولن يستطيعوا فعل شيء. ما كنتُ أخشاه هو مسألة الجريمة المتكاملة التي اختلقناها المرة الماضية. فهناك كان الأمر في حاجةٍ إلى مجرّد معلومة صغيرة، وينقلب الأمر علينا. أما هنا، فحتى وإن بدا موقفي سيئًا، لن يزداد سوءًا حتى وإن ظهرت بضعة أشياء. وكلّما ساءت صورتي لأنني كنتُ مخمورًا، قلّت فرصة أن يبدو الأمر جريمة قتل.

نظر الشرطة بعضهم إلى بعض، وتفحّصني القاضي كما لو أنني مجنون. فقد سمعوا القصة بأكملها من قبل، وكيف أنهم سحبوني من تحت المقعد الخلفي.

«متأكد؟ أنك أنت كنت تقود السيارة؟»

«كلّ التأكيد».

«كنتَ تشرب قبل الحادثة؟»

«كلا سيّدي».

«سمعتَ نتائج الفحوصات التي أجريت لك؟»

«لا شأن لي بهذه الفحوصات. كلّ ما أعرفه هو أنني لم أشرب».

ثم توجّه بالحديث إلى كورا، فقالت إنها ستدلي بأقوالها.

«من كان يقود السيارة؟»

«أنا».

«وأين كان هذا الرجل؟»

«في المقعد الخلفي».

«هل كان يشرب؟»

أشاحت بنظرها، وازدردتْ لعابها، وبكت قليلًا. «الجواب عن هذا السؤال إجباري؟»

«لستِ مجبرة على الإجابة عن أي سؤال».

«لا أريد أن أجيب».

«طيّب إذن. احكي بطريقتك ما حدث».

«كنتُ أقود السيارة. كان هناك مرتفع طويل، وارتفعت حرارة السيارة. قال زوجي يُستحسن أن نتوقف لتبرد قليلًا».

«كم كانت حرارتها؟»

«فوق المئتين».

«أكملي».

«بعد أن بدأنا ننزل في المنحدر، أطفأتُ المحرّك، ولمّا وصلنا إلى الأسفل كانت السيارة ما تزال ساخنة، لذلك توقّفنا قبل أن نصعد مرة أخرى. بقينا هناك حوالي عشر دقائق. بعدها شغّلت السيارة. لا أعرف ما حدث. غيّرتُ السرعة ولم تتحرّك بما فيه الكفاية، فنقلتها إلى الغيار الثاني بسرعة، وكانا يتحدّثان، أو ربما يتكلّمان عن نقل الغيار بسرعة، لكن المهم أنني أحسست بجانب السيّارة يسقط. صرخت لهما كي يقفزا، ولكن فات الأوان. أحسست بالسيارة تنقلب وتنقلب. الذي أذكره بعد ذلك أنني كنت أحاول الخروج من السيارة، وخرجت، ثم صعدت إلى الشارع».

استدار القاضي ناحيتي مرة أخرى. «لماذا إذن قلت ما قلتَه؟ تحاول أن تحميها؟»

«ولماذا أحميها؟ لا يبدو أنها تحاول أن تحميني».

خرج المحلّفون، ثم عادوا وقدّموا حكمهم بأنّ المدعو نِك پاپاداكس تُوفي نتيجة حادث سير في شارع ماليبو ليك، تعود المسؤولية الجنائية فيه جزئيًا أو كليًا إليّ أنا وكورا، وأوصى المحلّفون باحتجازنا للمثول أمام هيئة المحلّفين في المحكمة.

كان هناك شرطيّ آخر معي في تلك الليلة في المستشفى، وقد أخبرني في صباح اليوم التالي أنّ السيد ساكِت سيأتي لرؤيتي، وعليّ أن أستعد. كنتُ بالكاد أستطيع الحركة، لكنّ حلاق المستشفى حلق ذقني كي أبدو في هيئة حسنة. كنتُ أعرف من يكون ساكِت، النائب العام. جاء في حوالي العاشرة والنصف، فخرج الشرطيّ، ولم يكن هناك أحد سوانا. كان ضخم الجثّة أصلع الرأس، مَرِحًا.

«أهلًا أهلًا، كيف حالك الآن؟»

«بخير سيّدي القاضي. أتعبني الحادث قليلًا، لكنّي سأكون بخير».

«على رأي المثل، يا ساقط من الطائرة لا ينفعك جمال المنظر».

«بالضبط».

«طيّب يا تشامبرز. لست مجبورًا على الحديث معي، لكنّي أتيتُ لكي أرى حالتك أولًا، وثانيًا لأني أعرف من خبرتي أنّ الصراحة توفّر علينا الكثير من التعب، وأحيانًا تمهّد الطريق للفصل في القضيّة والانتهاء منها بإقرار قانوني مناسب. وعلى كلّ حال، لن نفهم بعضنا البعض إلا حين ينتهي الموضوع كما يُقال».

«حاضر سيّدي القاضي. ما الذي تريد معرفته؟»

تعمّدتُ أن أبدو مراوغًا، فجلس يتفحّصني. «لنبدأ من البداية».

«بداية الرحلة؟»

«بالضبط. أريد أن أعرف كلّ شيء».

نهض وأخذ يذرع الغرفة. كان الباب إلى جانب سريري، فدفعتُه ورأيتُ الشرطيّ في وسط القاعة يثرثر مع ممرّضة. انفجر ساكِت ضاحكًا. «لا، لا توجد أجهزة تسجيل هنا. هذا في الأفلام فقط».

رسمتُ على وجهي ابتسامةً ساذجة، وتركتُ لديه الانطباع الذي أريده. استخدمتُ خدعة بسيطة، وبدا هو المنتصر فيها. «طيّب سيّدي القاضي. عذرًا على سخافتي. تمام إذن، سأبدأ من البداية وأقول كلّ شيء. صحيحٌ أنّي في ورطة، لكنّ الكذب لن يفيدني».

«أحسنت يا تشامبرز».

أخبرتُه أنني هربتُ من اليونانيّ، ثم صادفتُه في الشارع وطلب مني أن أعوَد، ثم عرض عليّ أن أذهب معهما في رحلة إلى سانتا باربرا لنتحدّث في الأمر. وأخبرته أننا أحضرنا النبيذ وشربنا، وكيف انطلقنا في الرحلة وأنا أقود السيّارة. فاستوقفني.

«يعني كنت أنت فعلا تقود السيارة؟»

«سيّدي القاضي، أظنّ أنك أنت أدرى مني بهذا».

«ماذا تقصد يا تشامبرز؟»

«أنا سمعتُ ما قالتْه في التحقيقات، وسمعتُ ما قالتْه الشرطة. أعرف أين وجدوني. يعني أعرف أنها هي التي كانت تسوق. ولكن إذا طلبتَ مني أن أشهد بما أتذكّره فسأقول إني أنا كنت أسوق. لم أكن أكذب على قاضي التحقيق يا سيّدي. ما زلتُ أعتقد أنّي أنا كنت أسوق».

«لكنّك كذبتَ عندما أنكرتَ أنك لم تكن سكرانًا».

«صح. كان جسمي ممتلئًا بالكحول وذلك المخدّر الذي يعطونك إيّاه. نعم كذبت. لكنّي الآن واعٍ، وعندي عقل وأعرف أنّ الحقيقة وحدها هي التي ستخرجني من هذه الورطة. صحيح، كنت سكرانًا. سكرانًا «طِينة». لكنّي أنكرت لأني سأروح في داهية لو عرفوا أني كنت أسوق السيّارة وأنا سكران».

«هذا ما تريد أن تقوله أمام هيئة المحلّفين؟»

«لا بدّ أن أقوله سيّدي القاضي. لكنّ الذي لا أفهمه هو كيف صارت هي التي تسوق السيّارة. أنا متأكد أنني شغّلت السيارة وسقتها. كان هناك رجل واقف يضحك عليّ. إذن كيف أصبحت هي التي تسوق عندما سقطت السيّارة؟»

«أنت سقتَ السيّارة خطوتين».

«قصدك كيلومترين».

«أقصد خطوتين. وبعدها أخذَتْ منك المقود».

«يا إلهي. لا بدّ أنّي كنتُ فاقدًا».

«تمام. هذا شيء يمكن أن يصدّقه المحلّفون. به مسحة من السخافة التي تمشي مع الحقيقة. ربما يصدّقونه».

ثم جلس وأخذ ينظر إلى أظافره، فيما كنتُ أغالب ابتسامةً على وجهي. وارتحتُ حين بدأ يسألني أسئلة أخرى كي أشتّت عقلي عن فكرة أنّي أخدعه بسهولة.

«قل لي يا تشامبرز، متى بدأت العمل عند باباداكس؟»

«الشتاء الماضي».
«وكم بقيتَ معه؟»
«يعني إلى ما قبل شهر. أو ستّة أسابيع».
«يعني عملت عنده ستّة أشهر؟»
«تقريبًا».
«وماذا كنت تعمل قبلها؟»
«يعني، كنت ألقّط رزقي».
«كنت تطلب توصيلات؟ وتركب في قاطرات الشحن؟ وتشحت الأكل؟»
«نعم سيّدي».
فتحَ حقيبة أخرج منها رزمة ورق على الطاولة، وبدأ ينظر فيها. «زرتَ فْرِسكو من قبل؟»
«أنا مولود في فرِسكو».
«وكانزاس؟ ونيويورك؟ ونيو أورلينز؟ وشيكاغو؟»
«زرتها كلّها».
«سُجنتَ من قبل؟»
«نعم، سيدّي القاضي. حين يلقّط الإنسان رزقه من هنا وهناك يدخل في مشاكل مع الشرطة أحيانًا. نعم سيّدي سُجنت من قبل».
«سُجنت في تَسكْسِن؟»
«نعم سيّدي. أعتقد كانت عشرة أيام. بتهمة انتهاك سكك الحديد».
«ومدينة سولت ليك؟ وسان دييغو؟ وويتشيتا؟»
«نعم سيّدي، فيها كلها».
«وأوكلَند؟»
«سُجنت ثلاثة أشهر فيها سيّدي القاضي. تشاجرت مع محقّق السكك الحديدية».
«ضربتَه ضربًا محترمًا، صح؟»

«يعني، مسحت به الأرض كما يُقال. ولكن هو أيضًا مسح بي الأرض».

«ولوس أنجلس؟»

«مرة واحدة. ثلاثة أيام فقط».

«طيّب قل لي يا تشامبرز، كيف اشتغلت عند باباداكس؟»

«صدفة. كنت مفلسًا، وكان يبحث عن عامل. دخلت مطعمه لكي آكل، وعرض عليّ العمل وقبلته».

«تشامبرز، ألا ترى أنّ الأمر غريب؟»

«لم أفهم قصدك سيّدي القاضي».

«تتسكّع سنوات طويلة دون عمل حقيقي، دون أن تحاول حتى أن تعمل حسب ما أراه في الأوراق، وفجأة تقرّر أن تستقرّ وتعمل وتستمر في عملك؟»

«الصراحة لم أكن مرتاحًا جدًا».

«لكنك بقيت في العمل».

«الحقيقة أنّ نِك كان واحدًا من ألطف الناس الذين عرفتهم في حياتي. وبعد أن جمّعت بعض المال حاولت أن أقول له اكتفيت وسوف أرحل، لم يطاوعني قلبي بعد كل المشاكل التي حصلت له مع الذين عملوا عنده. ولكن بعد الحادث الذي أصابه، لم يكن موجودًا، فذهبتُ. اختفيت دون أن أقول شيئًا. بصراحة كان المفروض أن أعامله بشكل أفضل، لكنّ رِجلي تعوّدت على التسكّع سيّدي القاضي. وعندما تقول لي ارحل، أرحل. ورحلت بهدوء».

«وبعد رجوعك بيوم، قُتل».

«بصراحة أشعر بالذنب يا سيّدي القاضي. ربما لا أقول هذا للمحلّفين، لكنّ الحقيقة أنّي أشعر بالمسؤولية عن جزء كبير من الحادث. لو أني لم أشجّعه على الشراب، لربما كان بيننا الآن. صحيح أنه ربما لا علاقة لهذا بالحادث، لكن لا أدري. أنا كنت سكرانًا «طِينة» ولا أعرف ما حدث. مع ذلك، فلو لم يكن معها اثنان سكرانان لربما كانت ستسوق بشكل أفضل، صح؟ عمومًا هذا الذي أشعر به».

نظرتُ إليه، لأرى تأثير ما قلتُه. لم يكن ينظر إليّ. ثم فجأة نهض واقترب من السرير، وأمسك بكتفي.

«خلّصني يا تشامبرز. لماذا بقيت مع پاپاداكس ستّة أشهر؟»

«لم أفهم قصدك سيّدي القاضي».

«بل تفهم. أنا رأيتُها يا تشامبرز، ومن السهل تخمين السبب الذي دفعك لارتكاب ما فعلت. كانت في مكتبي أمس، وعينها وارمة، وحالتها يُرثى لها، لكنها مع ذلك كانت جميلة. كثيرون تركوا التسكّع من أجل امرأة مثلها، سواء أكانت رِجلهم متعوّدة على التسكّع أم لا».

«لكنّ رِجلي تسكّعت فعلًا. أنت مخطئ سيّدي القاضي».

«لم تتسكّع طويلًا. القصّة فيها إنّ يا تشامبرز. أمامي قضيّة قتل غير متعمّد واضحة ومنتهية، ثم فجأةً في يوم واحد تضيع القضيّة كلها. في كلّ مكان أبحث فيه يظهر شاهد ويقول شيئًا، وعندما أجمع أقوالهم كلهم تتبخّر القضيّة. معقول هذا يا رجل؟ لقد قتلتما اليونانيّ، أنت والمرأة. وكلما أسرعت بالاعتراف كان هذا في مصلحتك».

صدّقوني لم تكن على وجهي أيّ ابتسامة آنذاك. بل إنني كنتُ أحسّ بشفتيّ تتخدّران. حاولتُ أن أنطق بشيء، لكنني لم أستطع.

«لماذا تسكت؟»

«أنت تتّهمني. تتّهمني بشيء خطير. ولا أعرف كيف أردّ عليك سيّدي القاضي».

«قبل قليل كنت تثرثر، وتتشدّق بأنّ الحقيقة وحدها ستخرجك من الورطة. والآن أين ذهب لسانك؟»

«لَخبطْتَني».

«طيّب. سنأخذها واحدة واحدة لكي لا تتلخبط. أوّلًا، كنت تنام مع المرأة، صح؟»

«أبدًا».

«وفي الأسبوع الذي قضاه پاپاداكس في المستشفى؟ أين كنت تنام؟»

«في غرفتي».

«آه، وهي في غرفتها؟ يا رجل! قلتُ لك إني رأيتُها. لو كنت مكانك لنمت معها حتى لو شُنقت بتهمة الاغتصاب. وأنت أيضًا كنت ستفعل ذلك. بل إنك فعلته فعلا».

«لم أفكّر حتى بذلك».

«والمرّات التي خرجت فيها معها إلى سوق هاسلمن في غليندِيل؟ ماذا فعلت معها في طريق العودة؟»

«نِك هو الذي طلب مني أن أذهب معها».

«لم أسألك عمّن طلب منك الذهاب. سألتك عمّا فعلتَه».

كنتُ دائخًا جدًا، وكان لا بدّ أن أتصرّف بسرعة. والشيء الوحيد الذي خطر لي آنذاك هو أن أغضب.

«طيّب، سأفترض معك أنني نمت معها. هو غير صحيح، لكن هذا الذي تقوله وسأفترضه معك. لو كان الأمر بهذه السهولة فلماذا نقتله؟ سمعتُ عن رجال يمكن أن يقتلوا من أجل الشيء الذي تفترضُ أني كنتُ أحصل عليه معها، لكني لم أسمع عن رجال يقتلون وهم يحصلون عليه أصلًا».

«صحيح؟ طيّب، سأقول لك لماذا قتلتماه. خذ مثلًا المحلّ الذي دفع پاپاداكس ثمنه (14,000) دولار عدًّا ونقدًا. والجائزة الثمينة التي خطّطتم للحصول عليها لو حالفكم الحظ. بوليصة التأمين، العشرة آلاف دولار التي وضعها پاپاداكس على حياته».

كنتُ ما أزال أرى وجهه، لكنّ ما حوله كان يغرق في السواد، وكنتُ أجاهد في منع نفسي من أن أنقلب على جنبي. ولم أدرِ بنفسي إلا حين جاء بكأس ماء لكي أشرب. «اشرب. ستصير أحسن».

شربتُ قليلًا. كان لا بدّ أن أشرب.

«اسمع يا تشامبرز. غالبًا لن تشترك في جريمة قتلٍ أخرى قريبًا، ولكنْ إنْ حصل هذا، حاول أن لا تُدخل شركات التأمين في الموضوع. يا إبني هؤلاء يدفعون خمس أضعاف الذي تسمح لي الحكومة أن أصرفه على قضيّة. وعندهم

محقّقون أفضل بخمس مرات من المحققين الذين أستطيع أن أوظّفهم. هؤلاء يعرفون شغلهم من الألف إلى الياء، وهم يركضون وراءك الآن. المسألة عندهم مسألة أموال. هذا هو الخطأ الأكبر الذي ارتكبته أنت وهي».

«سيّدي القاضي، فليأخذ المسيح روحي إن سمعتُ عن أي بوليصة تأمين قبل الآن».

«لكنّ لونك انخطف».

«ألن ينخطف لونك لو كنت مكاني؟»

«طيّب. ما رأيك أن أقف إلى جانبك من البداية؟ تعترف اعترافًا كاملًا وتقرّ بالذنب وأنا أفعل كلّ ما في وسعي لمساعدتك في المحكمة؟ سأطالب بحكمٍ مخفّف».

«أبدًا».

«نسيتَ كلامك قبل قليل؟ الحقيقة، وقول الصدق أمام المحلّفين؟ الآن تعتقد أنّ الكذب سينقذك؟ تعتقد أنّي سأسمح بهذا؟»

«يا سيدّي لا يهمّني ما تسمح به. في داهية. تمسّك بموقفك في القضية وأنا أتمسّك بموقفي. لم أفعل شيئًا، وهذا ما أوافق عليه. واضح؟»

«في داهية؟! تحاول أن تفرد عضلاتك معي الآن، هاه؟ طيّب، اسمع إذن. سأقول للمحلّفين إنك كنت تنام معها، تمام؟ بعد ذلك تعرّض پاپاداكس لحادث بسيط، واستمتعت أنت وهي بعيدًا عنه، في الليل على السرير، وفي النهار على الشاطئ، يدك في يدها وتتبادلان النظرات. ثمّ خطرت لكما فكرة رائعة. بما أنه تعرّض لحادث، لماذا لا يشتري بوليصة تأمين ضدّ الحوادث، وبعدها تقتلانه. لهذا السبب هربتَ لكي تعطيها فرصة لتنفيذ الخطة. وهكذا اشتغلت هي على الموضوع واستطاعت أن تقنعه. اشترى بوليصة تأمين جيّدة جدًا تغطّي الحوادث والأمراض وغير ذلك، بتكلفة (46.72) دولار. أصبح كل شيء جاهزًا، وبعد يومين يلتقي فرانك تشامبرز بنِك پاپاداكس في صدفة مقصودة، ويحاول نِك إقناعه بالعودة للعمل. والأدهى أنه اتفق مع زوجته على الذهاب إلى سانتا باربرا وحجزا الفندق وكل شيء، وبذلك لا بأس إذن أن يذهب تشامبرز معهما وتعود المياه إلى مجاريها. وهكذا

ذهبتَ معهما، وتعمّدت أن يسكر اليونانيّ، وأنت معه. ووضعت زجاجتَي نبيذ في السيّارة لكي «تَسبك» الموضوع على الشرطة. بعد ذلك كان لا بدّ أن تأخذوا طريق «ماليبو ليك» لأنها تريد رؤية شاطئ ماليبو. فكرة بديعة، صح؟ أن تذهب إلى الشاطئ في الحادية عشرة مساء وترى مجموعة بيوت أمامها أمواج البحر. لكنكم لم تصلوا إلى هناك. توقّفتم في الطريق وهناك ضربت اليوناني بزجاجة نبيذ على رأسه. اختيار موفّق يا تشامبرز، لا أحد يجيد هذا أكثر منك، فهذا بالضبط الذي ضربت به محقّق السكك الحديدية في أوكلَند. بعد ذلك شغّلتْ هي السيّارة، وبينما كانت هي تخرج منها لتقف على دوّاسة الباب، قفزتَ أنت إلى الأمام وأنزلتَ الفرامل اليدويّة. كانت السيارة في الغيار الثاني. بعد ذلك عادت هي تمسك المقود، وجاء دورك لكي تخرج. لكنّك كنت سكرانًا، صح؟ كنت بطيئًا جدًا، وهي أسرعتْ في دفع السيارة إلى الحافة. أنتَ قفزتَ لكنك لم تستطع الخروج وتورّطت. ألا تعتقد أنّ المحلّفين سيصدّقون هذا؟ سيصدّقون، لأنني سأثبت كلّ كلمة، بداية من رحلة الشاطئ وانتهاءً بمسألة الفرامل اليدوية. وحين أنجح في ذلك لن يكون لك أي حكم مخفّف يا كابتن. حبل المشنقة. ثم يدفنونك مع كلّ الأغبياء الذين رفضوا عقد صفقة حين كانت لديهم فرصة للنجاة من الإعدام».

«ولا شيء من هذا حدث. أو على الأقل لا أعرف عنه شيئًا».

«ماذا تقصد؟ هي التي فعلت ذلك؟»

«لم أقل إنّ أي شخص فعل ذلك. اتركني في حالي! لم يحدث شيء من الذي تقوله».

«وكيف تعرف؟ ألا تقول إنك كنت سكرانًا طينة؟»

«لا أعرف عنه إن حدث».

«إذن تقصد أنها هي التي فعلت ذلك؟»

«اللعنة! لا أقصد هذا أبدًا. أقصد ما قلته فقط».

«اسمع يا تشامبرز. ثلاثة أشخاص كانوا في السيّارة. أنت وهي واليونانيّ. الأكيد أنّ اليوناني لم يفعل ذلك. فإذا لم تكن أنت الذي قتلتَه، لا يبقى غيرها، صح؟»

«ومن قال إنّ هناك شخصًا قتله؟»

«أنا. بدأنا نصل إلى نتيجة يا تشامبرز. ربما أنت لم تقتله. تقول لي إنك صادق، وربما يكون هذا صحيحًا. ولكنْ إذا كنت صادقًا، ولا مصلحة لك في هذه المرأة سوى أنها زوجة صديقك، فلا بدّ أن تفعل شيئًا، صح؟ لا بدّ أن ترفع شكوى عليها».

«ماذا تقصد بالشكوى؟»

«يعني لو أنها قتلت اليونانيّ، فبالتأكيد حاولت أن تقتلك أنت أيضًا، صح؟ كيف تسمح لها أن تخرج منها كالشعرة من العجينة؟ يبدو تصرّفًا غريبًا منك يا تشامبرز. تكون حمارًا يا تشامبرز لو تركتها تخرج منها. تخلّصتْ من زوجها من أجل بوليصة التأمين، وحاولت أن تتخلّص منك أيضًا. المفروض أن تفعل شيئًا، صح؟»

«ربما، لو أنها فعلًا فعلتْ ذلك. لكنّ هذا مجرد افتراض».

«إذا أعطيتك الإثبات، توقّع الشكوى، صح؟»

«طبعًا. إذا استطعت أن تثبت».

«طيّب يا تشامبرز. سأثبت لك. حين توقفتم، خرجتَ من السيارة، صح؟»

«لا».

«نعم؟ تقول إنك كنت سكرانًا طينة ولا تذكر أي شيء. الآن تتذكّر؟»

«أقصد على حدّ علمي لا».

«لكنّك خرجتَ فعلًا. اسمع أقوال هذا الرجل: «لم ألاحظ أشياء كثيرة في السيارة، غير أنّ امرأة كانت تسوق، وهناك رجل في الداخل كان يضحك، ورجل آخر خلف السيارة، يستفرغ». إذن يا تشامبرز كنتَ أنت خارج السيارة تستفرِغ. وهنا استغلّتْ هي الفرصة وضربتْ پاپاداكس بالزجاجة. وحين رجعتَ أنتَ لم تلاحظ شيئًا، لأنك كنت سكرانًا طينة، وپاپاداكس كان يبدو فاقد الوعي على أيّ حال. جلستَ أنت في مكانك وغبتَ عن الوعي، فغيّرت هي إلى الغيار الثاني، وأنزلت الفرامل اليدوية، وبمجرد أن وقفتْ على دوّاسة الباب، دفعتِ السيارة إلى الحافة».

«لا يوجد إثبات في هذا».

«بل هو الإثبات. يقول الشاهد رايت إنّ السيارة كانت تنقلب وتنقلب حين مرّ من هناك، لكنّ المرأة كانت في الأعلى على الشارع تلوّح له تطلب النجدة!»

«ربما نطّت من السيارة».

«لو أنها نطّت، لماذا تأخذ معها شنطتها؟ لا يمكن أن تسوق امرأة سيارة وهي تمسك شنطتها، صح؟ وإذا نطّت هل يكون عندها وقت لكي تلتقط الشنطة؟ غير ممكن. ومن المستحيل القفز من سيّارة صالون مائلة على جرف. لم تكن المرأة داخل السيارة حين سقطتْ. وهذا يثبت الأمر، صح؟»

«لا أدري».

«يعني؟ هل ستوقّع الشكوى أم لا؟»

«لا».

«اسمع يا تشامبرز. لم يكن سقوط السيارة بتلك السرعة حادثًا. إما أنت أو هي».

«اتركني في حالي. لا علاقة لي بما تقوله».

«إما أنت أو هي يا كابتن. إذا لم تكن لك علاقة بالأمر فالأفضل لك أن توقّع الشكوى. إذا لم توقّعها سأعرف أنك أنت المسؤول، والمحلفّون كذلك سيعرفون. والقاضي أيضًا. والشخص الذي سيعلّقك في حبل المشنقة».

نظرَ إليّ دقيقةً، ثم خرج، وعاد بصحبة رجل آخر. جلس الرجل وكتب ورقةً بقلمه. ثم قرّبها ساكِت منّي. «وقّع هنا يا تشامبرز».

وقّعتُ. كانت يدي مضمّخة بالعرق، حتى أنّ الرجل اضطُر إلى تجفيف الورقة.

الفصل العاشر

بعد أن خرجَ ساكِت، عاد الشرطيُّ وتمتم بشيءٍ عن لعبة بلاك جاك. لعبنا بضع جولات، لكنني لم أستطع التركيز في اللعبة. تظاهرتُ بأنني منزعجٌ من اللعب بيدٍ واحدة، فانسحبت.

«الظاهر أنه استطاع حرق أعصابك، هاه؟»

«قليلًا».

«إنه خطير فعلًا. لا أحد ينجو منه. ربما يبدو مثل الواعظ الذي يمتلئ قلبه بالحب، لكنّ قلبه حجر».

«فعلًا حجر».

«شخص واحد في المدينة استطاع أن ينال منه».

«صحيح؟»

«شخص يُدعى كاتز. أكيد سمعتَ عنه».

«نعم سمعت عنه».

«صديقي».

«خير صديق».

«اسمع. من غير المفروض أن يكون لك محامٍ الآن. أنت لست متّهمًا بشيء، ولا يمكنك استدعاء أحد. يمكنهم أن يحتجزوك ثماني وأربعين ساعة حجزًا انفراديًا كما يسمّونه. ولكن إذا جاء كاتز إلى هنا فلا بدّ أن أدعه يقابلك، فهمت؟ ربما يأتي هنا لو كلمتُه».

«تقصد أنك تحصل على نسبة؟»

«أقصد أنه صديقي. والصديق الذي لا يعطيني نصيبي ليس صديقًا، صح؟ إنه شخص رائع، صدّقني. الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يمسك ساكِت من رقبته».

«وماذا تنتظر يا ولد؟ كلما أسرعت كان أفضل».

«سأعود».

خرج مدةً، وحين عاد أشار لي بغمزة. ثمّ ما لبثنا أن سمعنا الباب يُقرع، ودخل كاتز. كان رجلًا ضئيل الحجم، في الأربعين من عمره تقريبًا، له وجه صلب القَسَمات، وشارب أسود. كان أوّل ما فعله أن أخرج كيسًا من تبغ «بول دُرَم» وأوراق لفٍّ بنّية، ثم لفّ سيجارة لنفسه. فلمّا أشعلها احترق نصفها من جانب واحد، وهذا آخر ما فعله بالسيجارة. كان يتركها معلّقة بين شفتيه، على جانب من فمه، ولا أدري ما إذا كانت مشتعلة أم لا، وما إذا كان نائمًا أم مستيقظًا. كان جالسًا، وعيناه نصف مغمضتين، يضع ساقه على ذراع الكرسي، وقبّعته على قفا رأسه. قد يرى البعض أنّ هذا المنظر محبط بالنسبة إلى وضعي آنذاك، لكنّ الأمر لم يكن كذلك. ربما يكون نائمًا، لكنه يبدو أعلم من المستيقظين حتى وهو نائم. ثمّة كتلة برزت في حلقي، كأنما العربة الجميلة قد تدلّت كي تحملني معها[7].

أخذ الشرطيّ يراقبه وهو يلفّ السيجارة، كما لو أنّه ينظر إلى بطل السيرك كادونا وهو يؤدي الشقلبة الثلاثية. كان مضطرًا إلى الخروج من الغرفة، كارهًا. وفور خروجه أشار لي كاتز أن أتحدّث. قلتُ له عن الحادث، وإنّ ساكت يقول إننا قتلنا اليونانيّ من أجل التأمين، ثم جعلني أوقّع على شكوى تتهمها بمحاولة قتلي. أنصتَ كاتز لي إلى أن انتهيت، وجلس في مكانه برهة دون أن يقول شيئًا. ثم نهض.

7- يبدو أنّ الإحالة هنا إلى أنشودة «تدلّي أيتها العربة الجميلة Swing Low Sweet Chariot»، وهي أنشودة دينية مسيحية معروفة يدعو فيها المؤمنون ربّهم أن يجازيهم عن إيمانهم برفعهم إليه بعربةٍ تحملهم إلى السماء، في إشارةٍ إلى ما ورد في العهد القديم من الكتاب المقدّس (سفر الملوك الثاني) عن النبيّ إيليا أنه رُفع إلى السماء بعربة من نار. ويُقال أيضًا إنّ العبيد الأفارقة في أميركا كانوا ينشدون هذه الأنشودة الدينية رمزًا للقطار الذي سيحملهم ليهربوا من العبودية. (المترجم).

«وضَعك في موقف صعب».

«ما كان ينبغي أن أوقّع. أنا لا أصدّق أنها فعلتْ ذلك، لكنه خدعني. اللعنة، لا أعرف كيف هو موقفي الآن».

«عمومًا، ما كان ينبغي أن توقّع».

«سيّد كاتز، ممكنٌ أن أطلب منك خدمة؟ هل يمكنك أن تزورها وتقول لها—»

«سأزورها، وسأقول لها ما يفيدها أن تعرفه. أما الباقي فاتركه عليّ. أنا سأتصرّف، مفهوم؟»

«نعم سيّدي مفهوم».

«سأكون معك حين يستدعونك. أو في كلّ الأحوال سيكون معك شخص من طرفي. بما أنّ ساكِت جعلك توقّع الشكوى، فغالبًا لن أستطيع الدفاع عنك وعنها. لكنني سأتدبر الأمر. مرّة أخرى، تذكّر أنني أنا سأتصرّف، مهما فعلتُ».

«تمام سيّد كاتز».

«أراك قريبًا».

***

في تلك الليلة حملوني على نقّالة مرة أخرى، وأخذوني إلى المحكمة. كانت محكمةً ابتدائية، ولم يكن بها صندوق لهيئة المحلّفين أو منصّة للشهود. جلس القاضي على منصّته، إلى جانبه بعض أفراد الشرطة، وأمامه طاولة ممتدة، ومن يرد أن يقول للقاضي شيئًا يضع ذقنه على منصّة القاضي ويتكلّم. في القاعة أناس كُثر، ومصوّرون يلتقطون صوري وأنا فوق النقّالة، ويبدو من الهمهمات المنتشرة أنّ الأمر جادّ وخطير. لم أكن أستطيع أن أرى كثيرًا من مكاني، لكنّني لمحتُ كورا وهي جالسة في الصفّ الأمامي مع كاتز، ورأيتُ ساكِت يتحدّث إلى رجال يحملون حقائب، وبعض أفراد الشرطة والشهود الذين كانوا في التحقيقات. بعد ذلك وضعوني أمام المنصّة، فوق طاولتين مضمومتين، وما كادوا يضعون اللحاف فوقي حتى انتهت قضيّة امرأة صينيّة، وبدأ شرطيٌّ يخبط الطاولة طلبًا للهدوء. في تلك

الأثناء مال شابٌ عليّ قال إنّ اسمه وايت، وإنه حاضرٌ للدفاع عنّي من طرف كاتز. هززتُ رأسي، لكنه ظلّ يهمس لي بأنّ كاتز هو الذي أرسله، فبدأ الشرطي يغضب ويخبط بقوّة.

«كورا پاپاداكِس».

نهضتْ، وقادها كاتز إلى منصّة القاضي. كادت تلمسني عند مرورها، وكم كان غريبًا أن أشمّ رائحتها هناك، الرائحة نفسها التي تثير جنوني، في وسط هذا كله. كانت تبدو في حال أفضل مما كانت عليه بالأمس. ترتدي بلوزة أخرى، مناسبة لمقاسها، وبذلة نظيفة مكويّة، وحذاء لامعًا. ما يزال السواد حول عينها، لكنّها غير متورّمة. مشى الآخرون كلّهم معها، ووقفوا في صفٍ واحد، ثم طلب منهم الشرطيّ أن يرفعوا اليد اليمنى، وبدأ يتمتم بشيء عن قول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. ثم توقّف في المنتصف كي ينظر ما إذا كنت أرفع يدي اليمنى. رفعتُها بسرعة، وبدأ يتمتم مرةً أخرى. وكلنا تمتمنا وراءه.

خلع القاضي نظّارته، وقال لكورا إنها متّهمة بقتل نِك پاپاداكِس، والاعتداء على فرانك تشامبرز، وإنّ بإمكانها أن تدلي بأقوالها إن أرادت، لكنّ أي شيء تقوله قد يُستخدم ضدّها، وإنّ من حقها أن يكون معها محامٍ، وإنّ أمامها ثمانية أيام حتى تقدّم إقرارًا قانونيًا إن أرادت. كانت جملةً طويلةً مُسهبة، حتى إنهم كانوا يسعلون قبل أن ينتهي منها.

بعد ذلك بدأ ساكِت في الكلام، وتحدّث عمّا يريد إثباته. كان الكلام نفسه الذي قاله لي في ذلك اليوم، لكنّه رواه ببلاغة ورصانة. فلمّا انتهى بدأ يستدعي شهوده. كان أوّلهم طبيب الإسعاف الذي ذكر وقت وفاة اليونانيّ ومكان الوفاة. ثم جاء طبيب السجن الذي أجرى التشريح، وبعده سكرتير قاضي التحقيق، فحدّد محضر التحقيق الصحيح وتركه عند القاضي، وبعد ذلك جاء اثنان لكنّي نسيتُ الذي قالاه. فلمّا فرغوا جميعًا كان كلّ ما أثبتوه هو أنّ اليونانيّ مات، وهذه حقيقة كنتُ أعرفها سلفًا فلم أعرهم أيّ انتباه. لم يطرح كاتز أي سؤال عليهم، فكلّما نظر إليه القاضي لوّح بيده، وتراجع الشاهد عن المنصّة.

وبعد أن اكتفوا من تقرير موت اليونانيّ، بدأ ساكِت يدخل في صلب الموضوع وقال أشياء مهمّة. استدعى في البداية رجلًا قال إنه يمثّل شركة «باسِفِك ستيتس الأميركية لتأمين الحوادث»، وشهد بأنّ اليونانيّ اشترى البوليصة قبلِ وفاته بخمسة أيام، ثم تحدّث عن الحالات التي تغطّيها البوليصة، وأنّه بمقتضاها يحصل اليونانيّ على خمسة وعشرين دولارًا كلّ أسبوع لمدة اثنين وخمسين أسبوعًا في حالة المرض وإصابة العمل، ويحصل على خمسة آلاف دولار لو فقد طرفًا من أطرافه، وعشرة آلاف لو فقد طرفين، وتحصل أرملته على عشرة آلاف لو مات في حادث، وعشرين ألفًا لو كان الحادث في قطار. وعندها بدا الأمر كما لو أنّه إعلان للشركة وبوليصاتها، فرفع القاضي يده.

«شكرًا، عندي كلّ ما أحتاج إليه من تأمين».

ضحك الجميع على نكتة القاضي. حتّى أنا ضحكت. كان بالفعل تعليقًا مضحكًا.

طرح ساكِت بضعة أسئلة أخرى، ثم تحوّل القاضي إلى كاتز. فكّر هذا دقيقةً، ثم بدأ يتحدث إلى الشاهد ببطء، كأنما يريد التأكّد من كلّ كلمة قبل أن يقولها.

«أنت طرف في هذه القضيّة، صح؟»

«من ناحيةٍ ما، نعم سيّد كاتز».

«وتريد التخلّص من دفع التعويض، على أساس وجود جريمة، صح؟»

«صحيح».

«يعني أنت تعتقد فعلًا أنّ هناك جريمة، وأنّ هذه المرأة قتلت زوجها لكي تحصل على التعويض، وأنها إما حاولت قتل هذا الرجل أو عرّضت حياته للخِطر عن سبق إصرار وترصّد، وهذا كله جزء من خطتها للحصول على التعويض؟»

ارتسم على وجه الرجل ما يشبه الابتسامة، وأخذ يفكّر دقيقة كأنه سيعامل كاتز بالمثل ويحاول التأكد من كل كلمة قبل أن يقولها. «إجابةً على سؤالكِ يا سيد كاتز، أقول لك إني تعاملتُ مع آلاف القضايا التي تشبه هذه القضية.

حالات تزوير تمرّ على مكتبي كلّ يوم، وأعتقد أنّ عندي خبرة غير عاديّة في هذا النوع من التحقيقات. والحقيقة أنّي ما رأيت طوال سنوات خبرتي قضيةً أوضح من هذه القضية. أنا لا أعتقد بوجود الجريمة يا سيد كاتز، بل متأكد منها».

«الدفاع يكتفي حضرة القاضي. ونقرّ بأنها مذنبة في التهمتين».

لو أنّه ألقى بقنبلةٍ في القاعة، لما أحدثت ذلك الهيجان الذي عمّ القاعة. هرع الصحافيّون للخارج، وهرع المصوّرون نحو المنصّة لالتقاط الصور. ظلّوا يصطدمون بعضهم ببعض، فغضب القاضي وبدأ يخبط بمطرقته لفرض الهدوء في القاعة. أمّا ساكِت فكان كمن تلقّى رصاصة. ثار اللغط في القاعة كلها، فلا تكاد تسمع شيئًا كأنما أدخلوا محارة في أذنك. ظللتُ أحاول أن أرى وجه كورا، فلم أر إلا زاوية فمها. كانت تختلج، كأنّ شخصًا يغرز فيها إبرةً مرةً بعد مرة.

***

ما أذكره بعد ذلك هو أنّهم حملوني على النقّالة خلف الشاب الذي يُدعى وايت إلى خارج القاعة، ثم أسرعوا بي عبر قاعتين إلى غرفةٍ فيها ثلاثة أو أربعة من أفراد الشرطة. قال وايت للشرطة شيئًا ذكر فيه اسم كاتز، فخرجوا من الغرفة. وضعني أصحاب النقّالة على الطاولة، ثم خرجوا. أخذ وايت يذرع المكان قليلًا، ثم انفتح الباب وجاءت شرطيّة مع كورا. خرج وايت والشرطيّة، وبقيتُ وحيدًا مع كورا. حاولتُ التفكير في شيء أقوله، فلم أفلح. مَشَت في الغرفة قليلًا دون أن تنظر إليّ، وفمها ما يزال يختلج. ظللتُ أزدردُ لعابي، ثم خطر لي شيء أقوله.

«انضحك علينا يا كورا».

لم تقل شيئًا. ظلّت تذرع المكان جيئة وذهابًا.

«هذا الذي اسمه كاتز ليس سوى لعبة قذرة في يد الشرطة. أرسله لي واحد من الشرطة، وظننته محترمًا. ولكن انضحك علينا».

«لا».

«صدّقيني انضحك علينا. كان المفروض أن أنتبه حين حاول الشرطيّ أن يقنعني. ظننت أنه صادق».

«انضحك عليّ أنا، أما أنت فلا».

«وأنا أيضًا خدعني».

«الآن وضح كل شيء أمامي. الآن عرفت لماذا كانت الخطة أن أسوق السيارة. وفي المرة السابقة لماذا كانت الخطة أن أفعلها أنا وليس أنت. آه، نعم. وقعتُ في غرامك لأنك ذكيّ. والآن فقط أكتشف ذكاءك. غريب، صح؟ أن تقع في غرام شخصٍ لأنه ذكيّ، ثم بعد ذلك تكتشف أنه ذكيّ».

«ماذا تقصدين يا كورا؟»

«انضحك علينا؟ انضحك عليّ أنا فقط. منك أنت والمحامي. رتّبتَ الأمر تمامًا، رتّبته بحيث يبدو أنني حاولت أن أقتلك أنت أيضًا. وهكذا يبدو من الصعب أن تكون لك يد في الأمر. بعد ذلك تجعلني أقرّ بأني مذنبة في المحكمة. وأنت تخرج منها تمامًا. ربما أكون غبيّة، ولكن ليس إلى هذه الدرجة. اسمع سيد فرانك تشامبرز. سترى مستوى ذكائك. أحيانًا ينقلب الذكاء على صاحبه».

حاولتُ أن أتحدّث إليها، دون جدوى. وحين بلغ بها التوتّر أن ابيضّت شفتاها تحت أحمر الشفاه، انفتح الباب ودخل كاتز. حاولتُ أن أقفز نحوه من على نقّالتي، لكنّي لم أستطع. كانوا قد قيّدوني كي لا أتحرك.

«اخرج من هنا يا قذر. تقول لي إنك أنت ستتصرف، هاه؟ نعم أكيد ستتصرّف. الآن عرفتُ حقيقتك. تسمعني؟ اخرج من هنا».

«ما بك يا تشامبرز؟»

كان يتحدّث كما لو أنّه معلّم مدرسةٍ في الكنيسة يكلّم طفلًا باكيًا لأنّ زملاءه سرقوا عِلكته. «ما الأمر؟ قلت لك أنا سأتصرّف».

«آه صحيح! احمد ربّك أنني لا أستطيع الوصول إليك».

نظرَ إليها مستفهمًا، كأنه لم يفهم ما قلتُه. فاقتربتْ منه.

«أنت وهذا الرجل تآمرتما عليّ كي تورّطاني ويخرج هو من القضية. اسمع. كان معي في هذا الأمر منذ البداية، ولن أسمح له بأن يفلت منها. سأتكلّم. سأقول كل شيء الآن».

هزّ رأسه ونظر إليها نظرةً لم أر أكثر منها زيفًا. «عزيزتي، لا أنصحك بذلك. من فضلكما اتركاني أتصرّف».

«أنت تصرّفت. والآن دوري أتصرّف».

نهض، وهزّ كتفيه، وخرج. لم يكد يخرج حتى دخل رجل ذو قدمين كبيرتين ورقبة حمراء يحمل آلة كاتبة، وضعَها على كرسيٍّ فوق كتابين، وانكبّ عليها، ثم نظر إلى كورا.

«السيد كاتز قال إنك تريدين الإفادة بأقوالك».

كان صوته حادًّا، وحين يتكلّم يرتسم على وجهه ما يشبه البسمة العريضة.

«نعم، لديّ أقوال».

ثم بدأتْ تتحدّث على نحوٍ متقطّع. كلمتان أو ثلاثًا في كل مرة، في حين كان هو يطبع ما تقوله بالسرعة نفسها. قالت كل شيء. عادت إلى البداية، حين التقينا أول مرة، وكيف بدأنا نخرج معًا، وكيف حاولنا أن نقتل اليوناني فلم نفلح. أثناء ذلك فتح شرطيّ البابَ مرّتين، فرفع صاحب الآلة الكاتبة يده.

«دقائق فقط أيها الرقيب».

«أوكي».

فلمّا وصلت في حديثها إلى النهاية قالت إنها لم تكن تعرف أيّ شيء عن بوليصة التأمين، وإننا لم نفعل ما فعلناه من أجل البوليصة، بل للتخلّص من اليونانيّ فقط.

«هذا كلّ شيء».

جمع أوراقه، ووقّعتْ عليها. «من فضلك اكتبي اسمك على الأوراق»، فكتبتْه. ثمّ أخرج خِتمًا وطلب منها أن تختم. بعد ذلك وضع الأوراق في جيبه، وطوى آلته الكاتبة، وخرج.

بعدها توجّهت نحو الباب ونادت على الشرطيّة. «جاهزة». دخلت الشرطيّة واقتادتها إلى الخارج، ثم جاء أصحاب النقّالة وحملوني خارجًا مسرعين لكنهم اصطدموا بزحام الناس الذين كانوا يتفرّجون على كورا وهي واقفة أمام المصعد مع الشرطيّة، للصعود إلى السجن في الطابق الأعلى. أخذوا يشقّون طريقهم بقوّة، فانسحبتْ بطّانيتي على الأرض. التقطتْها ولفّتها حولي، ثم استدارت سريعًا.

الفصل الحادي عشر

أعادوني مرةً أخرى إلى المستشفى، لكنّ الذي كان يراقبني لم يكن الشرطيّ، بل ذلك الرجل صاحب الآلة الكاتبة. كان مستلقيًا على السرير الآخر في الغرفة. حاولتُ أن أنام، فغفوتُ بعد فترة. رأيتُ في المنام أنها تنظر إليّ، وكنتُ أحاول أن أقول لها شيئًا، لكني لم أستطع. ثم تسقط، فأفيق من نومي، وذلك الصوت في أذني، الصوت المريع الذي أحدثتْه ضربتي على رأس اليونانيّ. ثمّ أنام ثانية، وأرى أنّي أسقط. أصحو، فأمسك برقبتي، والصوت نفسه في أذني. استيقظتُ مرةً وأنا أصرخ. فمال الرجل على مرفقه.

«أهلًا».

«أهلًا».

«ما بك؟»

«لا شيء. مجرّد حلم».

«أوكي».

لم يتركني لحظة. في الصباح طلب منهم أن يحضروا له طاسة ماء، فأخرج شفرة حلاقة من جيبه وحلَق ذقنه. غسل وجهه، ثم أحضروا الإفطار وتناول إفطاره على الطاولة. لم نقل شيئًا لبعضنا البعض.

عندئذ أحضروا لي صحيفة، ورأيتُ الخبر منشورًا، بصورة كبيرة لكورا في الصفحة الأولى، مع صورة لي تحتها أصغر حجمًا وأنا على النقّالة. أطلقتْ عليها الصحيفة لقب «قاتلة الزجاجة»، ورَوَت إقرارها بالذنب في المحكمة، وأنها سوف تحضر اليوم في المحكمة للنطق بالحكم. وفي إحدى الصفحات الداخلية من الصحيفة قيل إنّ القضية سوف تحقق رقمًا

قياسيًا في سرعة حسمها قضائيًا. وخبرٌ آخر نُقل فيه عن واعظٍ قوله لو أنّ كل القضايا تُحسم بهذه السرعة فسوف يساعد ذلك في منع الجرائم أكثر من إصدار مئات القوانين. بحثتُ في الصحيفة كلّها عن اعتراف كورا، فلم أجد شيئًا.

عند الثانية عشرة جاء طبيب شاب وأخذ يعالج رقبتي بالكحول، يبلّل الشرائط اللاصقة كي يزيلها. كان من المفترض أن يبلّلها بالكحول لإزالتها، لكنه في أغلب الوقت كان ينزعها نزعًا، فكانت تؤلم جدًا. فلمّا نزع بعضها بدأتُ أستطيع الحركة. جاءتني ممرّضة بملابسي، فارتديتها. ثمّ جاء أصحاب النقّالة وحملوني إلى المصعد ثم إلى خارج المستشفى، حيث كانت تنتظر سيّارةٌ مع سائق. ساعدني الرجل الذي قضى الليلة معي في الدخول إلى السيارة، ومضينا مسافة قصيرة على بعد مجمّعين سكنيَّين، ثم أخرجني من السيارة وصعدنا إلى أحد المكاتب في بناية. وهناك رأيت كاتز يلوّح لي بابتسامة عريضة.

«خلصنا».

«عظيم! متى يشنقونها؟»

«لن يشنقوها. كورا خرَجَت. براءة. ستأتي بعد قليل، بعد إنهاء بعض الإجراءات في المحكمة. ادخل، سأحكي لك كل شيء».

***

قادني إلى مكتب، وأغلق الباب. وبمجرّد أن لفّ سيجارة وحرق نصفها وتركها ملتصقة بفمه، بدأ يتكلم. لم أعرفه وهو في هذه الحالة؛ شتّان بين الرجل الذي رأيته بالأمس في نعاسٍ شديد وهذا الرجل الممتلئ حماسًا.

«تشامبرز. هذه أعظم قضيّة ترافعتُ فيها في حياتي. دخلتها وخرجتُ منها في أقل من أربع وعشرين ساعة. ولكن بصراحة لم يسبق أن حدث لي مثل هذا. حتى مصارعة دِمبسي وفيرپو لم تأخذ أكثر من جولتين، صح؟ المسألة ليست في الوقت، وإنما في الذي تفعله في ذلك الوقت. لكنّ الموضوع لم يكن مصارعة. كان لعبة ورق بين أربعة أشخاص. وكل لاعب عنده أوراق ممتازة. تُرى كيف تفوز؟ ربما لا حلّ سوى أن يلعب أحد اللاعبين بورقة

غبيّة، صح؟ لا! هذا يحصل معي كل يوم. ولكن عندما يكون عند الجميع أوراق يفوزون بها إذا لعبوها صح، هنا ألعب لعبتي. ياه يا تشامبرز، أنت قدّمتَ لي معروفًا كبيرًا حين طلبتني لهذه القضية. لن أجد مثلها أبدًا».

«حتى الآن لم تقل أي شيء».

«لا تقلق. سأقول. لكنّك لن تفهم، ولن تعرف كيف لعبنا الورقة الرابحة إلا إذا فرشتُ لك الأوراق كلها. أولًا، أنت والمرأة. كل واحد منكما عنده أوراق رائعة، لأنّها جريمة متكاملة يا تشامبرز. حتى أنت ربما لا تعرف قوّة الأوراق التي كانت عندك. الشيء الوحيد الذي حاول ساكِت أن يخوّفك به هو أنها لم تكن داخل السيّارة حين انقلبت، وأنّ شنطتها كانت معها، لكنّ هذا كله لا قيمة له. يمكن أن تتمايل السيارة قبل أن تسقط، صح؟ ويمكن أن تلتقط المرأة شنطتها قبل أن تقفز، صح؟ هذا لا يثبت أيّ جريمة. لا يثبت إلا أنها امرأة».

«ولكن كيف عرفتَ هذا كله؟»

«من ساكِت نفسه. تعشّيت معه البارحة، وكان يتفاخر. الغبيّ كان يتكلّم معي بنبرة إشفاق. أنا وساكِت عدوّان، لكنّنا عدوّان حميمان. كلّ منا مستعدّ لأن يبيع روحه للشيطان لكي ينتصر على الثاني. تصدّق أننا تراهنّا على الأمر؟ تراهنّا بمئة دولار. طبعًا كان يسخر مني، لأنه كان يرى أنّ قضيّته متماسكة. مجرّد أن يرمي الأوراق، ويترك الأمر لحبل المشنقة».

رائع! رجلان يتراهنان بمئة دولار على مصيري أنا وكورا في حبل المشنقة. لكنّي كنتُ أريد أن أستوضح الأمر في كلّ الأحوال.

«طيّب، إذا كانت أوراقنا ممتازة، فكيف تكون عنده أيضًا أوراق ممتازة؟»

«لا تستعجل. كانت لديكما أوراق رائعة، لكنّ ساكِت يعرف أنه لا يوجد رجل وامرأة يمكن أن يلعبا بتلك الأوراق إذا لعب المدّعي العام أوراقه بطريقة صحيحة. ساكِت يعرف أنّ كلّ ما يحتاج إليه هو أن ينقلب واحد منكما على الآخر، فتصبح القضية في جيبه. هذا أول شيء. بعد ذلك لن يحتاج إلى فعل أيّ شيءٍ في القضيّة. لديه شركة تأمين تقوم بالمهمّة بدلًا عنه. وهذا الذي فرح به ساكِت. يرمي أوراقه فقط وينتظر الفوز. ماذا يفعل

إذن؟ يأخذ المعلومات التي حصلتْ عليها شركة التأمين ويخوّفك بها، ويجعلك توقّع الشكوى ضدّها. أخذ أفضل ورقة عندك، وهي أنّك أُصبت إصابة شديدة، ثم يجعلك أنت بنفسك تفسد ورقتك الرابحة. بما أنك أصبت تلك الإصابة الخطيرة، فلا بدّ أن يكون الأمر حادثًا، لكنّ ساكِت يغيّر هذا بمجرّد توقيعك الشكوى ضدّها. وأنت وقّعت لأنك خائف. إذا لم توقّع سيعرف أنك ارتكبت الجريمة».

«المسألة وما فيها أنّي خفت، فقط».

«الخوف لون يظهر على الإنسان في الجريمة. ولا أحد يراه أفضل من ساكِت. عمومًا، ورّطك ساكِت ووضعك في الموقف الذي يريده. جعلك تشهد ضدّها. وهو يعرف أنك إذا فعلت ذلك لا توجد قوّة على الأرض تمنعها من أن تعترف عليك. هذا الذي كان يخطّط له حين تعشّينا. كان يسخر منّي. يشفق عليّ. يراهنّي على مئة دولار. أما أنا فكنت أعرف أنني سأهزمه لو لعبت بأوراقي صحّ. الآن يا تشامبرز، انظر إلى يدي. ماذا ترى فيها؟»

«لا أدري».

«ماذا ترى؟»

«بصراحة لا شيء».

«بالضبط، هذا ما رآه ساكت أيضًا. ولكن، ركّز الآن. بعد أن تركتك البارحة، ذهبتُ لرؤيتها، وحصلت منها على تخويل لفتح خزنة پاپاداكس في البنك، ووجدتُ فيها ما كنت أتوقّعه. كانت هناك بوليصات تأمين أخرى، فذهبت لزيارة الوكيل الذي كتبها. وهذا ما وجدته: بوليصة الحوادث لا علاقة لها أبدًا بالحادث الذي وقع لپاپاداكس قبل أسابيع. كان الوكيل قد سجّل ملاحظة في أوراقه بأنّ تأمين سيارة پاپاداكس سينتهي قريبًا، فذهب لرؤيته. كورا لم تكن هناك. أنجزا الأمر بسرعة في ما يتعلق بتأمين السيارة والتأمين ضدّ الحريق والسرقة والتصادم والحقّ العام وما إلى ذلك. ثم قال الوكيل لپاپاداكس إنّ التأمين يغطّي كل شيء سوى الإصابات، فلماذا لا يشتري بوليصة تأمين ضدّ الحوادث. أعجبته الفكرة. ربما كان ذلك الحادث هو السبب، ولكن الوكيل نفسه لم يكن يعرف شيئًا عنه. وقّع پاپاداكس

على الأوراق وأعطى الوكيل الشيك، ثم استلم البوليصات بالبريد في اليوم التالي. الوكيل يا تشامبرز يعمل لشركات كثيرة، وتلك البوليصات لا تصدر عن شركة واحدة. هذه النقطة رقم واحد التي لم ينتبه ساكت إليها. لكنّ النقطة الأهمّ هي أنّ پاپاداكس لم يأخذ بوليصات جديدة فقط، بل كان لديه بوليصات قديمة أيضًا. كانت مدة صلاحيتها ستنتهي بعد أسبوع. ركّز معي. شركة «پاسِفِك ستيتس للحوادث» لها بوليصة حوادث جديدة بقيمة عشرة آلاف دولار، وشركة «غارانتي كاليفورنيا» لها سَند بعشرة آلاف ضدّ الحق العام، وشركة «روكي ماونتن فِدِلِتي» لها سند قديم بعشرة آلاف ضدّ الحق العام. هذه ورقتي الأولى. كانت عند ساكِت شركة تأمين في صفّه يصل مبلغها إلى عشرة آلاف دولار، وأنا عندي شركتان في صفّي لهما مبلغ يصل إلى عشرين ألف دولار. فهمت؟»

«لا».

«اسمع. ساكِت سرق ورقتك الرابحة، صح؟ أنا سرقت نفس الورقة منه. أنت أُصبت، تمام؟ إصابة شديدة. فإذا نجح ساكت في إدانة كورا بجريمة القتل، وأنت رفعت شكوى ضدّها بسبب الإصابة التي حدثت لك نتيجةً لجريمة القتل، فسوف تعطيك هيئة المحلّفين كلّ ما تريد. وتصبح الشركتان ملزمتين بدفع كل فلس في البوليصات».

«فهمت الآن».

«ممتاز تشامبرز. أنا وجدتُ هذه الورقة، لكنك أنت لم تجدها، ولم يجدها ساكِت، ولم تجدها شركة پاسِفِك لأنها كانت مشغولة بلعبة ساكِت، متأكدة أنه سيفوز ولم تفكّر حتى في الأمر».

أخذ يذرع الغرفة بضع دقائق، مزهوًّا بنفسه كلّما مرّ بمرآة صغيرة.

«تمام. يبقى كيف نلعب بالورقة. كان عليّ أن أرميها بسرعة، لأنّ ساكت رمى ورقته، والاعتراف الذي ينتظره من كورا سيأتي في أي لحظة. ربما يأتي في الجلسة، بمجرّد أن تسمعك وأنت تشهد ضدّها. كنت مضطرًا إلى التصرّف بسرعة. ماذا أفعل؟ انتظرتُ حتى انتهى ممثل شركة پاسِفِك من شهادته، وأثبتُّ أنه يعتقد فعلًا بوجود جريمة. ربما أحتاج إلى ذلك إن أقمنا

دعوى احتجاز غير قانوني ضدّه لاحقًا. بعد ذلك فورًا، أقررتُ بأنها مذنبة. بذلك انتهت الجلسة، وأبعدنا خطر ساكِت. ثم أسرعتُ بكورا إلى غرفة المحامين، وطلبت نصف ساعة قبل أن يأخذوها إلى الحجز، وأرسلتُك إلى هناك. كنتُ أعرف أنها ستحتاج إلى خمس دقائق معك لا أكثر. وحين وصلتُ كانت جاهزة للاعتراف. فاستدعيت كينِدي».

«المُخبر الذي كان معي البارحة؟»

«كان مخبرًا. الآن هو محقّق خاص يعمل معي. كورا كانت تظنّ أنها تتحدث مع مخبر، لكنها في الواقع كانت تتحدث مع مخبر مزيّف. ونجحت الخطة. بعد أن قالت ما عندها وارتاحت، لم تقل شيئًا لأي أحد، وهذا ما كنت أريده. بعد ذلك كان الخوف منك أنت. من أن تفسد الأمر. لم تكن هناك تهمة ضدّك، ولم تكن رهن الاحتجاز، حتى وإن كنتَ تظنّ ذلك. كنتُ أعرف أنك حين تدرك ذلك لن توقفك شرائط لاصقة أو ظهرك المصاب أو نظام المستشفى أو أي شيء. لذلك أرسلت كينِدي لمراقبتك. والمسألة التالية كانت الاجتماع الصغير الذي رتّبته في منتصف الليل بين شركات پاسِفِك وغارانتي كاليفورنيا وروكي ماونت فِدِلتي. حين عرضتُ الأمر عليهم عقدوا الصفقة مباشرة».

«صفقة؟»

«قرأتُ عليهم القانون أولًا. فقرة الركّاب، القسم (141¾) من قانون كاليفورنيا للمركبات. يقول القانون إنه إذا تعرّض راكب في سيّارة لأذى، فلا حقّ له في الحصول على علاج إلا إذا كانت إصابته ناتجة عن سُكْر السائق أو سوء تصرّف متعمّد. فهمت يا تشامبرز؟ كنتَ أنت راكبًا، وأنا أقررت بأنّ كورا مذنبة بتهمة القتل والاعتداء. إذن كان هناك سوء تصرّف متعمّد هنا، صح؟ وهم لم يكونوا متأكدين، ربما فعلًا هي وحدها التي ارتكبت الجريمة. لذلك فإنّ الشركتَين اللتَين لديهما بوليصة الحقّ العام مصيرهما معلّق على إشارة منك، لذلك وافقتا على دفع خمسة آلاف دولار من كل شركة لتسديد بوليصة پاسِفِك ستيتس، ووافقت پاسِفِك ستيتس على أن تدفع وتغلق الموضوع. الأمر كله لم يأخذ أكثر من نصف ساعة».

عندها توقّف، وأخذ يبتسم مزهوًّا بنفسه.

«والآن؟»

«ما زلتُ أفكّر في الأمر. لا أنسى وجه ساكِت حين وقف ممثّل شركة باسفك على المنصّة وقال إنّه اقتنع بعد التحقيق بعدم وجود جريمة، وإنّ شركته ستدفع التعويض كاملًا. تشامبرز، عندك فكرة عن هذا الشعور؟ حين تحفر حفرة لشخص وتراقبه وهو يقع فيها؟ لا يوجد شعور مثله في العالم».

«ولكن لم أفهم. لماذا يأخذون أقواله مرة أخرى؟»

«هذه الجلسة كانت لإصدار الحكم. وعادةً حين يقرّ المتّهم بالذنب، تستدعي المحكمة بعض الشهود لكي تفهم الموضوع وتحدّد الحكم المناسب. كان ساكِت متعطّشًا للدم. يريد عقوبة الإعدام. فعلًا متعطّش للدم. لهذا السبب أحاربه. من وجهة نظره شنق الناس مفيد. الحقيقة أنّ الذي يقف ضدّ ساكِت يقامر بحياته. هذا الذي جعل ساكِت يستدعي ممثّل الشركة مرة أخرى. ولكن بدلًا من أن يكون ابن حرامه هو، أصبح بعد اجتماع الأمس ابن حرام يعمل لصالحي أنا، وساكِت لا يعرف. كان سينفجر حين اكتشف، لكنّ الوقت فات. فما دامت شركة التأمين نفسها لا توجّه الاتهام لكورا، لن يصدّق المحلّفون أنها مذنبة، صح؟ تبخّرت كل الفرص لإدانتها. هنا أحرقتُ ساكِت. وقفتُ، وقدّمت مرافعتي. أخذتُ وقتي. قلت إنّ موكّلتي تمسّكت ببراءتها منذ البداية، وأنا لم أصدقها بسبب وجود دليل يبدو قويًا ضدّها، ويكفي لإدانتها في أي محكمة، لذلك كنت أحاول أن أعمل لمصلحتها وأقرّ بذنبها لكي تخفّف المحكمة الحكم عليها. ولكن.. هل تعرف كيف نطقت هذه «اللكن»؟ ولكن على ضوء الشهادة التي ظهرت الآن، ليس أمامي إلا أن أسحب إقرار المتهمة وأترك القضيّة تأخذ مجراها. لم يستطع ساكِت أن يفعل شيئًا، لأنّ مهلة الثمانية أيام ما تزال عندي لتقديم الإقرار. عرف ساكِت أنه راح في داهية. فوافق على الإقرار بالذنب على جريمة القتل الخطأ، وحين استمعت المحكمة إلى الشهود لم تحكم عليها إلا بستّة أشهر مع وقف التنفيذ، وكانوا يشعرون أنهم قسوا عليها. ثم أبطلنا تهمة الاعتداء. كان هذا هو المفتاح الأساسي، وكنا سننساه».

عندها قُرِع الباب، وجاء كينِدي بكورا، ووضع بضع أوراق أمام كاتز، ثم خرج. «وقّع هنا يا تشامبرز. من فضلك. هذا للتنازل عن أيّ مطالبة بالتعويض عن إصابتك. هذه هي الخدمة التي نقدّمها لهم جزاء على تعاونهم».

وقّعتُ.

«أوصلك للبيت يا كورا؟»

«نعم».

«لحظة. مهلًا. بقي موضوع صغير. العشرة آلاف دولار التي ستحصلون عليها نتيجة التخلّص من اليوناني».

نَظَرَتْ إليّ، ونظرتُ إليها. كان هو ينظر إلى الشيك. «تفهمان قصدي. لا يمكن أن تكون أوراقي رائعة ومتكاملة ولا يحصل كاتز على شيء من المال. نسيت أن أخبركما. طيّب، لن أكون جشعًا. في العادة آخذ المبلغ كلّه، ولكن في هذه الحالة سآخذ النصف فقط. من فضلك سيدة پاپاداكِس اكتبي شيكًا بخمسة آلاف، وأنا سأتابع موضوع هذا الشيك لإيداعه في حسابك. تفضلي هذا شيك فارغ».

جلستْ، والتقطتِ القلم، وهمّت بالكتابة، ثم توقّفت، وكأنها لا تفهم ما يحدث. فجأةً، مال عليها وأخذ الشيك الفارغ، ومزّقه.

«يا ستّي، هي مرة في العمر، صح؟ تفضلي. لك المبلغ كلّه. لا تهمني العشرة آلاف. عندي عشرة آلاف. هذا ما أريده!»

وفتح دفتره الصغير، فأخرج منه قصاصةً أرانا إياها. كان شيكًا من ساكِت بقيمة مئة دولار. «تعتقدان أني سأصرف هذا الشيك؟ مستحيل. سأبروزه وأضعه على مكتبي».

الفصل الثاني عشر

خرجنا، واستقللنا سيارة أجرة لأنني كنت كسيحًا تمامًا. ذهبنا إلى البنك أولًا، وأودعنا الشيك، ثم ذهبنا إلى محلّ زهور واشترينا باقتين كبيرتين، ثم توجّهنا إلى جنازة اليونانيّ. غريبٌ أن تُقام جنازته الآن، بعد يومين من وفاته. كانت الجنازة في كنيسة يونانيّة صغيرة، حضر فيها جمعٌ غفير، بعضهم يونانيّون كنتُ أراهم في المطعم من حين إلى آخر. قابلوها ببرود حين وصلنا، وأجلسوها في مقعد بعد ثلاثة صفوف تقريبًا من المقدّمة. أدركتُ أنهم ينظرون إلينا، وقلتُ في نفسي تُرى كيف أتصرّف لو اعتدوا عليّ بعد الجنازة. فقد كانوا أصدقاءه، لا أصدقاءنا. ولكنْ سرعان ما رأيتُ صحيفة يتناقلونها كُتب عليها بالبنط العريض أنها بريئة، ونظر أحد المنظّمين إلى الصحيفة فجاء مسرعًا نحونا ونقَلنا إلى المقعد الأمامي. صعد الرجل الذي يلقي العِظة فبدأ خطبته بنكات مسيئة عن الطريقة التي مات بها اليونانيّ، لكنّ رجلًا صعد إليه وهمس في أذنه، مشيرًا إلى الصحيفة التي كانت قد وصلت إلى الصفوف الأمامية، فاستدار وأعاد كلامه دون نكات مسيئة، ثم أضاف كلامًا عن الأرملة الحزينة وأصدقاء الفقيد، وكانوا جميعًا يهزّون رؤوسهم تعاطفًا. فلمّا خرجنا إلى ساحة الكنيسة حيث القبر قادها اثنان من ذراعها وساعداها، في حين قادني رجلان آخران. بدأتُ أنتحبُ حين كانوا ينزلونه في القبر. في الحقيقة دائمًا ما تؤثّر تلك الترنيمات الجنائزية في المرء، لا سيما حين تقال عن شخصٍ يحبّه، مثلما كنتُ أنا أحبّ اليونانيّ. في النهاية غنّوا بضع أغنيات سمعتُه يغنّيها مئة مرة، فلم أعد أحتمل. كان أقصى ما عندي هو أن أضع زهورًا في المكان الذي ينبغي أن توضع فيه.

***

وجد سائق التاكسي شخصًا يؤجّر لنا سيّارة فورد بخمسة عشر دولارًا في الأسبوع، فأخذناها وانطلقنا. كانت هي التي تقود. فلمّا خرجنا من المدينة مررنا بمنزلٍ تحت الإنشاء، فظللنا نتحدث طوال الوقت عن ندرة المنازل التي تُبنى الآن، لكنها ستعود فور أن تتحسّن الأوضاع. حين وصلنا إلى البيت ساعدتني في الخروج من السيّارة، ثم ركنتْها، ودخلنا. كان على حاله كما تركناه، بالكأسَين اللتين شربنا فيهما النبيذ، وقيثارة اليوناني التي لم يرفعها من مكانها لفرط ثمالته. وضعتِ القيثارة في علبتها، وغسلتِ الكأسين، ثم صعدتْ. انتظرتُ دقيقة ثم صعدتُ خلفها.

***

كانت في غرفة نومهما، تجلس عند النافذة، تنظرُ إلى الطريق.

«والآن؟»

لم تقل شيئًا، فهممتُ بالخروج.

«لم أطلب منك أن تخرج».

جلستُ مرة ثانية. ومرّت فترة طويلة قبل أن تنفجر.

«انقلبتَ عليّ يا فرانك».

«أبدًا. ضحك عليّ يا كورا. اضطررتُ إلى توقيع الورقة وإلا اكتشف كلّ شيء. ما انقلبتُ عليكِ، لكنّي جاريته إلى أن أعرف كيف أتصرّف».

«انقلبتَ عليّ. كان هذا واضحًا في عينيك».

«طيّب يا كورا، صحيح. المسألة وما فيها أني خفت. حاولت أن أقاوم لكنّه ضغط عليّ فانهرت. هذا ما حصل».

«أعرف».

«عشت العذاب بسبب ذلك».

«وأنا انقلبتُ عليك يا فرانك».

«أجبروكِ على ذلك. خدعوكِ».

«كان بإرادتي. كرهتك وقتها».

«لا بأس. كان بسبب شيء لم أفعله. والآن عرفتِ الحقيقة».

«لا. كرهتك بسبب شيء فعلتَه».

«أنا لم أكرهكِ قط يا كورا. كرهتُ نفسي».

«لا أكرهكَ الآن. أكره ساكت. وكاتز. لماذا لم يتركانا في حالنا؟ لماذا لم يتركانا نحارب سويّة؟ لا مانع عندي حتى ولو أدّى ذلك إلى... تفهم ما أقصده. على الأقل كان عندنا حبّنا. وهذا كلّ ما كان عندنا أصلًا. ولكن من أوّل مرة ظهر فيها خبثُهم، انقلبتَ عليّ».

«لا تنسي أنكِ انقلبتِ عليّ أيضًا».

«وهذا أسوأ ما في الموضوع. انقلبتُ عليك. نحن الاثنان انقلبنا بعضنا على بعض».

«متعادلان إذن، صح؟»

«متعادلان، ولكن انظر لحالنا الآن. كنا عاليًا يا فرانك، فوق قمة الجبل. كان عندنا كلّ شيء حين كنا هناك في تلك الليلة. كان شعورًا غريبًا عليّ. تبادلنا القبلات وتعاهدنا بالجسد كي يكون العهد أبديًّا، مهما حصل. الذي كان عندنا أكبر من أيّ شيء يملكه اثنان في العالم. بعدها سقطنا. أنت أولًا، ثم أنا. نعم صرنا متعادلين. معًا في الأسفل. اختفى جبلنا العالي».

«لا يهمّ. المهمّ أننا معًا، صح؟»

«ربما. فكّرت كثيرًا يا فرانك. البارحة. عنّي وعنك، والأفلام، ولماذا سقطنا، والمطعم الحقير، والطريق، وسبب حبّك للطريق. نحن حقيران يا فرانك. في تلك الليلة قبّلنا الربّ على جبيننا. أعطانا كلّ الذي يتمنّاه اثنان. ونحن لم نكن من النوع الذي يستحقّه. كان لدينا كلّ ذلك الحبّ، ثم انهرنا تحته. كان مثل محرّك طائرة كبيرة، تأخذك في السماء، إلى قمّة الجبل. ولكن حين تضعه في سيّارة فورد، تتحطّم إلى قطع صغيرة. هذا نحن يا فرانك، مجرّد سيارات فورد. والربّ يضحك علينا الآن».

«لا يهمّ. نحن أيضًا نضحك عليه، صح؟ وضع أمامنا علامة قف حمراء، لكننا تجاوزناها. ماذا حصل بعدها؟ فقدنا أعصابنا؟ نعم. لكننا خرجنا براءة،

ومعنا عشرة آلاف دولار. تقولين قبّلنا الربّ على جبيننا؟ لكنّ الشيطان بعد ذلك كان يفعل بنا في السرير، وصدّقيني، الشيطان عنيف حين يفعل ذلك».

«لا تتكلّم هكذا يا فرانك».

«حصلنا على العشرة آلاف أم لا؟»

«لا أريد التفكير فيها. المبلغ كبير، لكنه لن يشتري جبلنا».

«أيّ جبل؟ لدينا الجبل وفوقه عشرة آلاف، دولار ينطح دولارًا. إذا أردتِ الصعود عاليًا، قفي على كومة الدولارات».

«مجنون. ليتك ترى نفسك وأنت تصرخ بهذا الرباط الذي في رأسك».

«نسيتِ شيئًا يا كورا. هناك شيء نحتفل به. ألم نتفق على أن نكون معًا سكرانَين؟»

«لم أقصد سكرانة هكذا».

«السكران سكران. أين الخمر الذي كان عندي قبل أن أذهب؟»

ذهبتُ إلى غرفتي وأحضرتُ الشراب. كانت زجاجة بِربن لم ينقص منها إلا ربعها. نزلت، فأحضرتُ كأسَي كوكاكولا، ومكعّبات ثلج، ومشروب وايت روك، وصعدتُ مرة أخرى. خلعتْ كورا قبّعتها، وأسدلتْ شعرها. جهّزتُ كأسين، بهما شيء من الوايت روك وقطعتا ثلج، أما البقيّة فمن الزجاجة.

«اشربي. ستصيرين أحسن. هذا ما قاله ذلك الحشرةُ ساكِت حين ورّطني».

«يا إلهي، لكنّه مشروب قويّ».

«طبعًا. تعالَي قربي. لا حاجة لأن تلبسي كلّ هذي الثياب».

دفعتُها نحو السرير، لكنّها تمسّكت بكأسها، وانسكب شيءٌ منه.

«في ستّين داهية. لدينا كثير».

بدأتُ أنزع بلوزتها.

«قطّعني يا فرانك. قطّعني مثلما فعلتَ في تلك الليلة».

مزّقتُ ثيابها كلّها. أخذتْ تتلوّى، وتستدير ببطء كي تنخلع الملابس

من تحتها. ثم أغمضتْ عينيها واستلقتْ على المخدّة. كان شعرها منسدلاً على كتفيها في لفائف متلويّة. ما يزال السواد تحت عينها، ونهداها لم يكونا مشدودَين يشيران إليّ، بل رخوَين منفرشين في لطختَين ورديّتين كبيرتين. في تلك اللحظة كانت تبدو مثل الجدّة الكبرى لكلّ عواهر الدنيا. لقد أخذ الشيطان حقّه وزيادة في تلك الليلة.

الفصل الثالث عشر

ظللنا على هذه الحال ستة أشهر، لا شيء يتغيّر. نتشاجر، فألجأ إلى الزجاجة. وأما سبب الشجارات فكان الرحيل. لم يكن مسموحًا لنا أن نغادر الولاية قبل مضيّ فترة الحكم المعلّق، لكنّي كنتُ أقصد أنه ينبغي علينا الرحيل بعدها. كنتُ أريد أن أبعدها عن ساكِت، لكنني لم أقل لها. الحقيقة أني كنتُ خائفًا من أنها قد تفقد عقلها وتعترف كما فعلت سابقًا، إن غضبتْ عليّ لسببٍ أو لآخر. لم أكن أثق بها طرفة عين. في بادئ الأمر كانت متحمّسة للرحيل، لا سيّما حين حدّثتها عن هاواي وبحار الجنوب، لكنّ المال بدأ ينهمر علينا بعد ذلك. فحين فتحنا المحلّ بعد أسبوع تقريبًا من الجنازة، تقاطر الناس على المحلّ كي يروا حالها، ثم أعجبهم المكان فأصبحوا يتردّدون إليه. وهكذا بدأتْ ترى في الأمر فرصةً جيّدة لكسب المزيد من المال.

«فرانك. كلّ المطاعم الصغيرة من حولنا مقرفة. يديرها أشخاص كانت لديهم مزارع في كانزاس أو غيرها، ولا فكرة لديهم عن المطاعم وخدمة الناس. أعتقد أنه لو جاء شخص مثلي يعرف العمل جيدًا وحاول أن يجهّز مكانًا جميلًا لهم، فسوف يأتون دائمًا ويحضرون أصدقاءهم».

«في ستيّن داهية. سنبيع المحلّ في كلّ الأحوال».

«البَيعة ستكون أسهل لو كان المحلّ يكسب».

«ونحن نكسب».

«أقصد لو كان المكسب جيّدًا. اسمع يا فرانك. أعتقد أنّ الناس سيعجبهم لو وجدوا مكانًا يجلسون فيه في الخارج تحت الشجر. ما رأيك؟ الناس في

كاليفورنيا لا تستفيد من الجوّ الجميل. يفتحون مطاعم بديكور جاهز من شركة «أكمي» لتأثيث المطاعم، ورائحة المطعم تثير القرف، ثم يقدّمون طعامًا سيئًا يمكنك أن تجده عند «فِرسنو» في الحدود، ولا يعطون الناس فرصة للاستمتاع بالمكان».

«اسمعي. سنبيع المحل، صح؟ وكلّما قلّت أشياؤنا كلّما كانت البيعة أسرع. صحيح أنّ الناس يحبّون الجلوس تحت الأشجار. الكلّ يعرف ذلك، ما عدا محلات المشاوي الصغيرة في كاليفورنيا. ولكن لكي ننفّذ الفكرة سنحتاج إلى طاولات وأضواء كثيرة وغير ذلك، وربما الشخص الذي يشتري المكان لا يريد هذا كلّه».

«نحن مضطرّان إلى البقاء ستّة أشهر، غصبًا علينا».

«طيّب، نستخدم هذه الفترة في البحث عن مشترٍ».

«أريد أن أجرّب الفكرة».

«تمام. جرّبيها، أنتِ حرّة».

«يمكنني أن أستخدم بعض طاولاتنا الداخلية».

«طيّب، قلت لكِ جرّبيها. تعالي نشرب».

***

أما الشجارُ الأكبر بيننا فكان حول ترخيص بيع البيرة، وعندها عرفتُ ما كانت تصبو إليه فعلًا. وضعتِ الطاولات خارجًا تحت الأشجار على منصّة صغيرة بَنَتْها، مع سقيفةٍ مقلّمة فوقها ومصابيح، ونجحت الفكرة. كانت على حق؛ فالناس استمتعوا فعلًا بالجلوس تحت الأشجار نصف ساعة، والاستماع إلى شيء من موسيقى الراديو، قبل أن يعودوا إلى سيّاراتهم ويكملوا رحلتهم. بعد ذلك ظهر موضوع البيرة، فقد رأتْ فرصةً في تقديم البيرة في هذا المكان وتسميته «حديقة البيرة».

«لا أريد حدائق بيرة، واضح؟ كلّ ما أريده شخص يشتري المكان كلّه ويدفع».

«لكنها فرصة».

«لا، بالنسبة لي ليست فرصة».

«اسمع فرانك. الترخيص لا يكلّف إلا اثني عشر دولارًا لستّة أشهر. مبلغ مقدور عليه، صح؟»

«إذا أخذنا الترخيص دخلنا في تجارة البيرة. نحن الآن في تجارة البنزين والسندويشات، وتريدين أن ندخل في البيرة! لا نريد. أنا أريد أن أتخلّص من هذا كله، لا أن نتوسّع».

«كلّ المحلّات لديها ترخيص».

«بالهناء والشفاء عليهم».

«الناس يريدون أن يأتوا، والمكان مجهّز تحت الأشجار، وتريدني أن أقول لهم لا نقدّم البيرة لأنه ليس عندنا ترخيص؟»

«لستِ مضطرة للتبرير لهم».

«كلّ ما علينا فعله هو وضع براميل مبرِّدة، وعندها نصبّ البيرة من الحنفيّة. هذا أفضل وأربح من بيع البيرة في زجاجات. رأيت بعض الكؤوس الرائعة في لوس أنجلس. كؤوس طويلة حلوة. من النوع الذي يحب الناس أن يشربوا فيه البيرة».

«براميل وكؤوس! أقول لك لا أريد حديقة بيرة».

«فرانك. ألا تريد أن تنجح؟»

«اسمعي، وافهميني. أريد أن أرحل من هنا. أريد أن أذهب إلى مكان آخر، مكان لا ينطّ لي فيه شبح شخص يونانيّ ابن كلب، ولا أسمع صداه في أحلامي، ولا أفزع في كلّ مرة أسمع فيها صوت غيتار في الراديو. لا بدّ أن أرحل، واضح؟ إما أرحل من هنا أو أجنّ».

«أنت تكذب».

«لا أكذب. أنا جادّ جدًا».

«لا أصدّق أنك ترى شبح شخص يوناني. ربما شخصٌ آخر يراه ولكن لا أصدّق أنّ السيد فرانك تشامبرز يراه. أنت تريد أن ترحل لأنك متشرّد. كنت متشرّدًا حين جئت هنا ومازلت متشرّدًا. قل لي، ماذا سنفعل لو رحلنا وصرفنا كلّ ما لدينا؟»

«لا يهمّني. المهم أن نرحل، صح؟»

«هذا هو. لا يهمّك. يمكننا أن نبقى هنا—».

«كنتُ متأكّدًا. هذا الذي تريدينه. من أوّل الأمر تريدين أن نبقى هنا».

«وأين المشكلة؟ وضعنا ممتاز. ما الذي يمنع؟ اسمع يا فرانك. منذ أن عرفتني وأنت تحاول أن تجعلني متشرّدة، لكنّك لن تنجح. قلت لك أنا لست متشرّدة. أريد أن أنجح. سنبقى هنا. لن نرحل. سنأخذ ترخيص البيرة ونكبُر».

كان الوقتُ متأخرًا، وكنا في الأعلى، نصف عاريَين. كانت تذرع المكان جيئة وذهابًا كما كان حالها بعد الجلسة، تتحدّث بالطريقة المتقطّعة نفسها.

«تمام، سنبقى. سنفعل أيّ شيء تريدينه يا كورا. تعالي، اشربي معي».

«لا أريد أن أشرب».

«لا بدّ أن تشربي. لا بدّ أن نضحك أكثر على موضوع المال الذي أخذناه، صح؟»

«ضحكنا بما فيه الكفاية».

«ولكننا سنحصل على أموال أكثر، صح؟ من حديقة البيرة. لا بدّ أن نضحك عليها لجلب الحظ».

«مجنون! طيّب، لجلب الحظّ فقط».

وهكذا مضى الأمر، مرّتين أو ثلاثًا كلّ أسبوع. لكنّ إشارة الخطر كانت في الأحلام التي كانت تأتيني بعد كلّ صداعٍ ينتابني من السُكْر. كنتُ أسقط، وأسمع صوت الضربة في أذني.

***

فور أن انتهت فترة الحُكْم، جاءها تلغراف يبلغها بمرض والدتها. جمعتُ شيئًا من ثيابها على عجل، وأوصلتُها إلى القطار. ثمّ في طريق عودتي إلى موقف السيّارات انتابني شعورٌ غريب، كأنما كنتُ مصنوعًا من غاز، وسوف أطفو عاليًا إلى مكانٍ ما. شعرتُ بالحرّية. لمدّة أسبوع على أيّ حال. سأستريح من الشجار، وصراع الأحلام، ومحاولة أن أغيّر مزاج امرأةٍ بزجاجة خمر.

رأيتُ في موقف السيّارات فتاة تحاول أن تشغّل سيّارتها. لم تشتغل. داست على كلّ شيء فيها، لكنّها لم تتحرّك.

«ما الأمر؟ لا تشتغل؟»

«تركوا المفتاح في السيّارة عندما ركنوها، والآن البطّارية فارغة».

«إذن هي غلطتهم. عليهم أن يشحنوها لك».

«صحيح، لكنّي يجب أن أعود إلى البيت».

«سأوصلك».

«أنت لطيف جدًا».

«أنا ألطف واحد في العالم».

«أنت حتى لا تعرف أين أسكن».

«لا يهمّ».

«البيت بعيد. في الريف».

«عزّ الطلب. بيتكم في طريقي، أين ما كان».

«بهذا الكلام يصعب على فتاة لطيفة أن ترفض».

«ما دام الرفض صعبًا، لا ترفضي».

***

كانت فتاة شقراء، ربما تكبرني قليلًا، مقبولة الجمال. لكنّ الذي لفت نظري فيها أنها ودودة جدًا، وأنها لم تكن خائفة مما قد أفعله بها، كما لو كنتُ مجرّد طفل. يبدو واضحًا أنها تعرف كيف تتدبّر أمورها. أما الذي أنهى كلّ تردّدٍ عندي فهو أنها لم تكن تعرفني. قلتُ لها اسمي في الطريق ونحن خارجان من الموقف، فلم تعرفه. ما أجمل هذا! أخيرًا وجدتُ شخصًا لا يطلب مني أن أجلس معه دقيقة وأشرح له تفاصيل القضيّة التي يقولون إنّ اليونانيّ قُتل فيها. نظرتُ إليها، فعاد إليّ ذلك الشعور، كأنني مصنوع من غاز، وسأسبح في الهواء الآن من مكاني.

«اسمك ماج آلن، هاه؟»

«في الحقيقة ماج كرامر، لكنني استعدتُ اسم عائلتي بعد وفاة زوجي».

«طيّب اسمعي يا ماج آلن، أو كرامر، أو أي اسم تريدينه. عندي اقتراح لك».

«تفضل».

«ما رأيك أن نعود من هذا الطريق ونتوجّه إلى الجنوب، نذهب في رحلة أنتِ وأنا مدة أسبوع؟»

«أوه، لا أقدر».

«ما المانع؟»

«هكذا. لا أقدر».

«هل ارتحتِ لي؟»

«نعم أكيد».

«وأنا ارتحت لك. ما المانع إذن؟»

همّتْ بقول شيءٍ، لكن لم تقله، ثم ضحكتْ.

«أنا «أخبّص» أحيانًا، ويعجبني أن أفعل ذلك. ولا يهمني إن كان المفروض أن لا أفعله. لكني لا أقدر. بسبب القطط».

«قطط؟»

«عندنا قطط كثيرة. وأنا المسؤولة عنها. لذلك قلتُ لك لا بدّ أن أعود إلى البيت».

«طيّب. هناك مزارع للحيوانات الأليفة، صح؟ نتّصل بواحدة منها ونطلب منهم أن يذهبوا ويأخذوها».

ضَحِكتْ.

«أتمنّى أن أرى وجوههم حين يرون القطط. قططنا ليست من ذلك النوع».

«القطط قطط».

«لا. بعضها صغير، وبعضها كبير. قططي كبيرة. ولا أظنّ أنّ مزرعة الحيوانات الأليفة ستعرف كيف تتعامل مع الأسد الذي عندنا. أو النمور. أو الفهد. أو اليَغْورات الثلاثة. وهذه هي الأسوأ. اليَغْوَر قطّ لعين».

«يخرب بيتك. ماذا تفعلين بها؟»

«أووه، أؤجّرها في الأفلام. أبيع صغارها. بعض الناس عندهم حدائق حيوان خاصة. يعني، أحتفظ بها، وتثير اهتمام الآخرين».

«لا أعتقد أنها ستثير اهتمامي».

«لدينا مطعم. والناس يحبّون النظر إليها».

«مطعم هاه؟ أنا أيضًا. البلد كلها تبيع النقانق لبعضها البعض».

«على أيّ حال، لا أستطيع ترك قططي. لا بدّ أن تأكل».

«من قال لا نستطيع؟ سنتصل بـ«غوبل» ونطلب منهم أن يأتوا لأخذها. سوف يعتنون بها مقابل مئة دولار».

«وهل تستحق الرحلة معي مئة دولار؟»

«تستحق بالضبط مئة دولار».

«يا إلهي. كيف أرفض؟ يمكنك الاتصال بغوبل إذن».

***

أوصلتُها إلى بيتها، وبحثتُ عن هاتف عمومي فاتّصلت بغوبل، وعدتُ إلى البيت، وأغلقت المطعم. ثم عدتُ إليها. كان الظلام قد أوشك. أرسلتْ شركة غوبل شاحنة، رأيتُها وهي عائدة محمّلة بالقطط المخطّطة والمنقّطة. أوقفتُ سيارتي على بعد تسعين مترًا تقريبًا، وما لبثتْ أن خرجتْ مع حقيبة سفرٍ صغيرة. ساعدتُها في ركوب السيّارة، وانطلقنا.

«فرحانة؟»

«جدًا».

ذهبنا إلى «كاليينتي»، ثم واصلنا المسير في اليوم التالي إلى «إنسينادا»، وهي بلدة مكسيكية صغيرة تبعد حوالي مئة كيلومتر على خطّ الساحل. وهناك ذهبنا إلى فندق صغير قضينا فيه ثلاثة أيام أو أربعة. إنسينادا كلّها مكسيكيون، فتشعر هناك كما لو أنك تركت الولايات المتحدة على بعد مليون كيلومتر. كانت في غرفتنا شرفة صغيرة، نستلقي فيها في العصر، وننظر إلى البحر نُزجي الوقت لا أكثر.

«إذن قطط، هاه؟ ماذا تفعلين بها، تدرّبينها؟»

«هذا النوع لا ينفع للتدريب. فكلّها ممنوعة ما عدا النمور. نعم أدرّبها».

«تحبّين تدريبها؟»

«يعني، ليس الكبيرة منها. لكنّي أحبّ الفهود. ذات يوم سأقدّم عرضًا معها. لكنّي سأحتاج إلى كثير منها. فهود الغابات، وليس الفهود الممنوعة التي تراها في حدائق الحيوان».

«ماذا تقصدين بالممنوعة؟»

«النوع الذي ربما يقتلك».

«كلّها تقتل، صح؟»

«ربما، لكنّ الممنوع يقتلك في كلّ الأحوال. لو كان بشرًا لأصبح إنسانًا مختلًّا. والسبب هو أنها عاشت في الأسْر. تبدو في مظهرها قططًا، لكنها كائنات مجنونة».

«وكيف تميّزين قطط الغابات؟»

«أصطادها في الغابة».

«تقصدين أنّكِ تصطادينها حيّة؟»

«طبعًا. لا فائدة إذا كانت ميّتة».

«يخرب بيتك. كيف تصطادينها؟»

«آخذ قاربًا وأذهب إلى نيكاراغوا. كلّ الفهود الرائعة أصلها من نيكاراغوا. أما التي يحضرونها من كاليفورنيا والمكسيك فهي هجائن سيّئة بالمقارنة معها. بعد ذلك أستأجر أولادًا هنودَ ونذهب إلى الجبال. ثم أصطاد الفهود، وأحضرها هنا. لكنّي هذه المرة سأبقى معها فترة أدرّبها. لحم الماعز هناك أرخص من لحم الخيول لدينا».

«من كلامك يبدو أنكِّ مستعدّة».

«نعم».

صبّت قليلًا من النبيذ في فمها، ونظرتْ إليّ نظرة طويلة. في الفندق

يعطونك النبيذ في زجاجة بها صنبور رفيع طويل، فتصبّ النبيذ في فمك، لتبريده. أعادت الكرّة مرتين أو ثلاثًا، وكانت تنظر إليّ في كلّ مرة.

«أنا مستعدّة إذا كنت أنت مستعدًا».

«يا سلام! تعتقدين أنني سأذهب معك لاصطياد تلك الأشياء؟»

«فرانك. أحضرتُ معي الكثير من المال. ما رأيك أن نترك تلك القطط المجنونة لغوبل مقابل أن يعتني بها، ونبيع سيّارتك بأي ثمن نحصل عليه، ونصطاد القطط؟»

«تأمرين أمرًا».

«تقصد أنك موافق؟»

«متى نبدأ؟»

«توجد عبّارة ستخرج من هنا غدًا إلى «بالبوا». من هناك نرسل تلغرافًا لغوبل. ونترك سيارتك في الفندق هنا. يبيعونها ويرسلون لنا الثمن. المكسيكيون بطيئون في العمل، لكنّهم أمناء».

«أوكي».

«يا سلام..أنا فرحانة».

«وأنا أيضًا. مللت من النقانق والبيرة وفطائر التفّاح مع الجبن. في ستين داهية».

«سيعجبك الأمر جدًا يا فرانك. سنستأجر سكنًا في الجبال، وهناك الجوّ بارد، وبعد أن أجهّز العرض مع الفهود، نلفّ العالم. نذهب إلى أي مكان ونفعل ما نشاء، ومعنا مال كثير. ألا يوجد فيك شيء من الغجر؟»

«شيء منهم؟ أنا مولود بحَلَقٍ في أذني».

لم أنم جيّدًا تلك الليلة. وحين أوشك النهار، فتحتُ عينيّ مستيقظًا تمامًا. خطر لي حينها أنّ نيكاراغوا ليست بعيدة بما فيه الكفاية.

الفصل الرابع عشر

ترجّلت عن القطار وكانت ترتدي فستانًا أسود بدتْ فيه طويلة القامة، وقبّعة سوداء، وحذاء أسود وجوربَين أسودَين طويلَين، ولم تكن على طبيعتها حين كان الرجل يحمّل أغراضها في السيارة. انطلقنا، وبقينا صامتَين بضعة كيلومترات، لا نجد ما نقوله لبعضنا البعض.

«لماذا لم تقولي لي إنها ماتت؟»

«لم أكن أريد أن أزعجك. وكنتُ مشغولة على أيّ حال».

«أشعر بالذنب الآن يا كورا».

«لماذا؟»

«لأنني ذهبت في رحلة. ذهبت إلى فرِسكو».

«ولماذا تشعر بالذنب؟»

«يعني، كنتِ أنتِ في آيوا وأمّك على فراش الموت، وأنا أستمتع بوقتي في فرِسكو».

«لا داعي لأن تشعر بالذنب. جيّد أنك ذهبت. لو كنتُ فكّرت حينها لطلبت منك ذلك قبل أن أذهب».

«خسرنا قليلًا. لأنني أغلقت المحل».

«لا بأس. سنعوّض».

«شعرتُ بالملل بعد أن ذهبتِ».

«لا بأس يا فرانك، لا مانع عندي».

«أكيد كان الوضع صعبًا عليك».

«نعم. ولكن انتهى الأمر على أيّ حال».

«سأعطيكِ مشروبًا حين نصل إلى البيت. عندي شراب جميل أحضرته لك».

«لا أريد».

«سيغيّر مزاجك».

«لا أريد أن أشرب أبدًا».

«صحيح؟»

«سأحكي لك لاحقًا. قصة طويلة».

«يبدو من صوتك أنّ أشياء كثيرة حصلت هناك».

«لا، أبدًا. الجنازة فقط. ولكن عندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك. أعتقد أنّنا سنستفيد من الأمر».

«خبّريني. ما الأمر؟»

«ليس الآن. هل زرت عائلتك؟»

«لماذا أزورهم؟»

«على أيّ حال، استمتعت بوقتك؟»

«نوعًا ما. متعة من يسافر وحده».

«أظنّ أنك استمتعت كثيرًا. ولكن يسعدني أنك قلت هذا».

***

حين وصلنا، وجدنا سيّارة واقفة أمام المحل وفيها شخص جالس. كان يبتسم ابتسامة سخيفة، ثم خرج من السيارة. كان هذا كينِدي، الرجل الذي يعمل عند كاتز.

«تتذكّرني؟»

«طبعًا أتذكّرك. تعال ادخل».

أدخلناه معنا، وسحبتني كورا إلى المطبخ.

«لستُ مطمئنّة لهذا يا فرانك».

«ماذا تقصدين؟»

«لا أعرف. لكنّه إحساسي».

«دعيني أتحدّث معه».

جلستُ معه، وأحضرتْ لنا كورا بيرة وتركتْنا، وما لبثتُ أن بدأتُ أكلمه عن القضايا.

«ما زلتَ تعمل مع كاتز؟»

«لا، تركته. اختلفنا، وتركت العمل».

«وماذا تعمل الآن؟»

«لا شيء. وبصراحة لهذا السبب جئت. جئت مرّتين من قبل ولكن لم أجد أحدًا. لكني سمعتُ أنكما عدتما، فانتظرت».

«أنا حاضر لأيّ خدمة».

«كنتُ أفكّر ما إذا كان بالإمكان أن تعطيني بعض المال».

«رقبتي سدّادة، حاضر. لا أحتفظ بنقود كثيرة معي ولكن إذا كنت تحتاج إلى خمسين أو ستّين دولارًا، سأعطيك إياها بسرور».

«كنت أتأمّل أن يكون المبلغ أكبر».

كان ما يزال يبتسم، فأدركتُ أنّه حان وقت التوقف عن اللف والدوران.

«قُل يا كيندي. ما الأمر؟»

«الموضوع كالتالي. أنا تركتُ كاتز، والورقة التي كتبتُها للسيدة پاپاداكِس ظلّت في الملف. ولأنّي أعتبرك صديقًا، قلت في نفسي أكيد لا تريد أن تبقى تلك الورقة هناك. لذلك أخذتها. وقلت ربما تريد أن تسترجعها».

«تقصد التخاريف التي قالت إنها اعترافها؟»

«بالضبط. طبعًا أنا أعرف أنها غير مهمّة، ولكن قلت في نفسي ربما تفضّل أن تكون عندك».

«تمام. كم تريد وتعطينا الورقة؟»

«كم تدفع؟»

«لا أدري. أنت قلت بنفسك إنها غير مهمة، ولكن ربما أدفع مئة دولار. لا مانع عندي».

«أعتقد أنها تساوي أكثر».

«صحيح؟»

«تقريبًا خمسة وعشرين ألفًا».

«أنت مجنون؟»

«لا، لستُ مجنونًا. أخذتما عشرة آلاف من كاتز، والمطعم له إيرادات، ربما خمسة آلاف. ويمكنكما رهن المحل للبنك والحصول على عشرة آلاف. پاپاداكِس اشتراه بأربعة عشر ألفًا، أكيد ستحصلان على عشرة. المجموع خمسة وعشرون».

«تريد أن تأخذ كل ما عندي، مقابل الورقة؟»

«قيمتها فيها».

لم أحرّك ساكنًا، لكنّ عيني بالتأكيد اختلجتْ، فقد أخرج من جيبه مسدّسًا وصوبّه نحوي.

«لا تحاول يا تشامبرز. أولًا، الورقة ليست معي. ثانيًا، إذا حاولت سأطلق النار عليك».

«لم أحاول أن أفعل شيئًا».

«جيّد».

أبقى المسدّس مصوّبًا نحوي، وظللتُ أنظر إليه.

«يبدو لي أنك أوقعتني».

«لا يبدو. هذا أكيد».

«لكنّ المبالغ التي تذكرها مبالغ فيها».

«أسمعك يا تشامبرز».

«أخذنا عشرة من كاتز، هذا صحيح. ما تزال عندنا. وربحنا خمسة من المطعم، لكننا صرفنا ألفًا في الأسبوعين الماضيين. سافرتْ هي لدفن أمّها، وأنا ذهبت في رحلة. لهذا السبب أغلقنا المحل».

«أكمل».

«ولا يمكن أن نحصل على عشرة على المحل. بالأوضاع الحالية لن نحصل حتى على خمسة. ربما نحصل على أربعة».

«أكمل».

«تمام؟ عشرة وأربعة وأربعة. ثمانية عشر».

تبسّم لماسورة المسدّس برهةً، ثم رفع عينيه. «طيّب، ثمانية عشر. سأتصل بك غدًا. إذا كانت جاهزة عندك، سأقول لك الخطوة التالية. إذا لم تجهز، سأرسل الورقة لساكِت».

«الأمر صعب، ولكن أعطيك كلمتي».

«غدًا سأتصل بك عند الساعة الثانية عشرة. بهذا يكون عندك وقت للذهاب للبنك».

«أوكي».

تراجع إلى الباب وهو يصوّب مسدّسه ناحيتي. كان الوقت قرب الغروب. وفيما كان يتراجع، استندتُ إلى الجدار كأنّي مُحبَط. حين كاد يخرج من الباب شغّلتُ أنوار اللافتة، فالتمعتْ في عينيه. فلمّا استدار، انقضضتُ فوقه، فلويتُ يده حتى سقط المسدّس منها في المطعم، وضربتُه مرة أخرى. ثمّ سحبتُه إلى الداخل، وأغلقتُ الباب برجلي. كانت واقفة هناك. كانت بالتأكيد تسترق السمع طوال الوقت.

«خذي المسدّس».

التقطَته ووقفت في مكانها. رفعتُ كيندي وألقيتُ به على إحدى الطاولات، وثنيت ظهره، ثم أخذتُ أضربه وأضربه. فلمّا فقد الوعي، أحضرتُ كوب ماء وصببتُه عليه. وما إن استفاق حتى عدتُ أضربه مرة أخرى. ولم أتوقف إلا حين أصبح وجهه كاللحم النيء، وكان ينتحب مثل طفلٍ في الدقائق الأخيرة من مباراة كرة.

«اصحَ يا كيندي. اتّصل بشركائك».

«لا شركاء عندي يا تشامبرز. أقسم لك. لا أحد غيري يعرف عن الـ--».

وضربتُه مرة أخرى. ظلّ يكرّر أنه لا شركاء لديه، فلويتُ ذراعه بقوّة وقلتُ له: «طيّب يا كيندي. ما دام لا يوجد عندك شركاء، سأكسر ذراعك».

تحمّل أكثرَ مما توقّعت، تحمّل إلى أن أصبحتُ أضغط على ذراعه بكلّ ما أملك من قوة، ولا أدري إن كنتُ أستطيع كسرها. كانت ذراعي اليسرى ما تزال ضعيفة بسبب الكسر. لو سبق لكم أن حاولتم كسر مفصلٍ ثانٍ لديكٍ رومي، فسوف تدركون صعوبة كسرِ ذراع شخص. لكنّه فجأةً قال إنه سيتّصل. تركتُ ذراعه، وقلتُ له ما ينبغي أن يقوله. أخذتُه إلى هاتف المطبخ، ثم سحبتُ هاتف المطعم كي أرى وأسمع ما يقولون. وجاءت كورا معنا، تحمل المسدّس.

«إذا أعطيتكِ الإشارة، أطلقي النار عليه».

استندتْ إلى الجدار، بابتسامةٍ ترتعش على طرف فمها. وأظنّ أنّ تلك الابتسامة هي التي أرعبتْ كينِدي أكثر من كلّ الضرب الذي ضربتُه إياه.

«سأطلق عليه».

اتّصل كينِدي، فردّ عليه رجل.

«من معي؟ وِلي؟»

«أنت پات؟»

«هذا أنا. اسمعني. كلّ شيء تمام. متى تستطيع أن تأتي ومعك الغرض؟»

«غدًا، حسب اتفاقنا».

«تستطيع أن تأتي الليلة؟»

«كيف أخرجها من الخزنة والبنك مقفل؟»

«تمام. إذن اسمع. هاتها أوّل الصبح، وتعال. سأذهب إلى بيته».

«بيته؟»

«افهمني يا وِلي. يعرف أننا أوقعنا به. لكنه يخشى أن ترفض لو عرفتْ أنه سيدفع كلّ هذا المبلغ. فهمت؟ لو خرج من البيت ستشكّ، وربما تصرّ على الذهاب معه. لذلك سنتفق هنا. الليلة سأبات عندهم بصفتي شخصًا يريد قضاء الليلة في موقف السيارات. وهي لا تعرف شيئًا. وغدًا تأتي أنت بصفتك صديقي، وننتهي من الموضوع».

«وكيف يحضر المبلغ إذا لم يخرج؟»

«الموضوع مرتّب».

«ولماذا تبيت هناك؟»

«لي غرض في ذلك يا وِلي. ربما يماطلنا، أريد أن أتأكد. وإذا بقيت هنا لن يستطيع أي أحد منهما الهرب. فهمت؟»

«هل يسمعك الآن؟»

نظرَ إليّ، فأشرتُ له أنْ نعم.

«نعم هو معي في كابينة الهاتف. أريده أن يسمعني، فهمت يا وِلي؟ أريده أن يعرف أننا لا نلعب».

«لكنّها طريقة غريبة يا پات».

«اسمع يا وِلي. لا أنت ولا أنا ولا أحد يعرف إذا كان صادقًا أم لا. لكنني سأعطيه فرصة، ربما يكون صادقًا. ما بك؟ ما دام الرجل موافقًا على الدفع، دعنا نمشي معه إلى النهاية. افعل ما طلبته منك. تعال صباحًا في أسرع وقت. فهمت؟ في أسرع وقت. لا أريدها أن تشكّ في سبب وجودي هنا».

«أوكي».

أغلق الخطّ، فمشيتُ نحوه وأوسعتُه ضربًا.

«هذه لكي تختار كلامك حين يتّصل بك. فهمتَ يا كيندي؟»

«فهمت».

انتظرتُ بضع دقائق، وما لبث أن جاء الاتصال. رفعتُ السمّاعة، وحين ردّ عليه كينِدي كرّر عليه ما قاله. وقال له إنه يكلمه وحده الآن. لم يبدُ وِلي مطمئنًا للأمر، لكنه كان مضطرًا إلى القبول. بعد ذلك أخذتُ كيندي إلى السقيفة رقم 1. جاءتْ معنا، وكنتُ أحمل المسدّس. وفور أن أدخلتُ كيندي، خرجتُ من الباب وقبّلتُها.

«هذه لتقوية أعصابك. اسمعي. لن أتركه لحظة. سأبقى هنا طوال الليل. ستكون هناك اتصالات أخرى، وسوف ندخله لكي نتكلم. أعتقد من الأفضل أن تفتحي المحلّ. حديقة البيرة. لا تُدخلي أحدًا إلى الداخل. إذا جاء شركاؤه ليتشمموا الأخبار تكونين هناك ويبدو الأمر طبيعيًا».

«طيّب. فرانك؟»

«نعم؟»

«إذا حاولتُ أن أتشاطر في المرة القادمة، هل يمكنك أن تلكمني في وجهي؟»

«ماذا تقصدين؟»

«الآن عرفت أنّ معك حقًّا. كان ينبغي أن نرحل».

«أكيد ينبغي أن نرحل. ولكن بعد أن نأخذ الورقة».

قبّلتني وقالت: «اكتشفت أني أحبّك كثيرًا يا فرانك».

«سنأخذ الورقة. لا تقلقي».

«لست قلقة».

***

بقيتُ معه طوال الليل. لم أعطه طعامًا ولم أسمح له بالنوم. أراد أن يتحدّث مع وِلي ثلاث أو أربع مرّات، وفي مرةٍ واحدة أراد وِلي أن يتحدّث معي أنا. أعتقد أننا نجونا من المشكلة. بين وقتٍ وآخر كنتُ أضربه. كان الأمر مجهدًا، لكنني كنتُ أريده أن يستميت في إحضار الورقة. كنا نسمع صوت الراديو في حديقة البيرة مع ضحكات الناس وأحاديثهم، فيما هو يمسح الدم عن وجهه بالمنشفة.

***

جاءت كورا في حوالي العاشرة صباحًا.

«وصلوا، أعتقد. ثلاثة أشخاص».

«هاتيهم هنا».

أخذتِ المسدّس وأخفته في حزامها، وذهبتْ. وما هي إلا دقيقة حتى سمعت شيئًا يسقط. كان واحدًا من «بلطجيّته». كانت تهدّدهم بالمسدّس وتطلب منهم المشي بظهورهم ورفع أياديهم، فسقط أحدهم حين ارتطم كعبُه بالرصيف. فتحتُ الباب.

«مِن هنا يا سادة».

دخلوا، رافعي الأيدي، وجاءت بعدهم وناولتْني المسدّس.

«كانوا كلّهم مسلّحين. أخذتُ منهم المسدسات في المطعم».

«هاتيها أحسن. ربما يأتي غيرهم».

ذهبتْ، ثم عادت بعد دقيقة تحمل المسدّسات. فرّغتْها من الطلقات ثم وضعتْها على السرير، إلى جانبي. بعد ذلك بدأتْ تفتّش جيوبهم، ولم يمض وقت طويل حتى عثرت على الورقة. المضحك أنّنا وجدنا في مظروف آخر نسخ فوتوستات منها، ستّ نسخ موجبة وواحدة سالبة. إذن كانوا يخطّطون للاستمرار في ابتزازنا، لكنّهم لغبائهم جلبوا النسخ معهم. أخذتُ النسخ كلّها للخارج، وأحرقتُها. فلمّا احترقتْ دستُ على الرماد كي يختلط بالتراب، وعدتُ إلى الداخل.

«طيّب يا شباب. بإمكانكم الذهاب الآن. ولكن سنحتفظ بالأسلحة».

أوصلتُهم إلى سيّاراتهم وانصرفوا، لكنّني حين عدتُ إلى الداخل لم أجد كورا. خرجتُ ثانية فلم أرها. صعدتُ للأعلى. كانت في غرفتنا.

«خلصنا. انتهينا من كل شيء، حتى نسخ الفوتوستات. كان الموضوع يقلقني».

لم تقل شيئًا، وبدت عيناها غريبتين.

«ما بك يا كورا؟»

«خلصنا، هاه؟ حتى نسخ الفوتوستات. لكنّها ليست الأخيرة. عندي مليون نسخة منها، مثل تلك النسخ وأحسن. جِمي دورانتي. عندي مليون نسخة منها. انخرب بيتي![8]»

وانفجرتْ ضاحكة، وألقت بنفسها على السرير.

«آه نعم، لو كنتِ عبيطة لدرجة أن تضعي رقبتك في حبل المشنقة للتَخلّص مني، فأكيد عندك مليون نسخة. أكيد طبعًا. مليون».

«لا لا، وهذا أحلى شيء. لن أضع رقبتي في حبل المشنقة أبدًا. ألم

8- الإحالة هنا إلى جملة شهيرة كان يقولها الممثّل الكوميدي الأميركي جِمي دورانتي في تمثيليّاته الإذاعية: «I am mortified». (المترجم).

يخبرك السيد كاتز؟ ما داموا حكموا عليّ بتهمة القتل الخطأ فلا يمكنهم إضافة تهمة أخرى. هذا مكتوب في الدستور أو شيئًا كهذا. لا يا سيد فرانك. الأمر لا يكلّفني أي شيء لأجعلك ترقص في الهواء من حبل المشنقة. هذا ما ستفعله. ترقص وترقص وترقص».

«ما بك يا كورا؟»

«لا تعرف؟ جاءت صديقتك بالأمس. لم تكن تعرفني، وباتت هنا».

«أيّ صديقة؟»

«التي ذهبتَ إلى المكسيك معها. حكت لي كلّ شيء. أصبحنا صديقتين. بالأحرى كانت تريد أن نكون صديقتَين. لأنها بعد أن عرفتني خافت أن أقتلها».

«لم أذهب إلى المكسيك منذ سنة».

«ذهبتَ يا فرانك».

خرجتْ، وسمعتُها تدخل غرفتي. فلمّا عادت كانت معها قُطيطة صغيرة، لكنّها أكبر من القطط. رماديّة اللون، مرقّشة بدوائر. وضعتْها على الطاولة أمامي، فبدأت تموء. «الفَهدةُ وَلَدت وأنت بعيد، فأحضرتْ لك واحدة للذكرى».

استندتْ إلى الجدار وبـدأتْ تضحك مرة أخرى، ضحكة مجنونة مسعورة. «وعادت القطّة! نطّت على صندوق الكهرباء وماتت، لكنّها عادت! ها ها ها! غريب ها؟ حظّك مع القطط سيئ جدًا».

الفصل الخامس عشر

عندها انهارت، وأخذتْ تبكي، ثمّ هدأتْ ونزلت إلى الأسفل. لحقتُ بها. كانت تنزع أطراف كرتونة كبيرة.

«أصنع بيتًا لقطتّنا الصغيرة يا عزيزي».

«جميل».

«ماذا كنت تظنّ أني أفعل؟»

«لا شيء».

«لا تقلق. عندما يأتي الوقت للاتصال بالسيد ساكِت، سأخبرك. هدّئ أعصابك. ستحتاج إلى قوّتك كلها».

فرشَت الكرتونة بالنشارة، ثم وضعت فوقها بعض الخِرَق الصوفيّة. حملت الكرتونة إلى الأعلى ووضعت الفَهد الصغير فيها. ماءَ الفهدُ فترةً، ثم نام. نزلتُ لأصبّ لنفسي كأس كوكاكولا. ولم أكد أضيف الأمونيا عليه إلا وكانت واقفة عند الباب.

«أصنع لنفسي شيئًا يقوّيني، عزيزتي».

«جميل».

«ماذا كنتِ تظنّين أني أفعل؟»

«لا شيء».

«لا تقلقي. حين أكون جاهزًا للهروب، سأخبرك. هدّئي أعصابك. ستحتاجين إلى قوّتك كلّها».

حدجتْني بنظرة غريبة، ثم صعدت. ظلّ الأمر هكذا طوال اليوم، ألاحقها خوفًا من أن تتّصل بساكِت، وتلاحقني خشية أن أهرب. لم نفتح المحلّ.

وبين هذه المراقبات كنا نجلس في الغرفة. لم ننظر بعضنا إلى بعض. كنا ننظر إلى الفهد. كان يموء، فتحضر له الحليب. كنتُ أذهب معها. وبعد أن يشرب الحليب ينام. كان صغيرًا جدًا، لم يحن وقته للّعب. كان في أغلب الوقت إما يموء أو ينام.

***

في تلك الليلة استلقينا على السرير جنبًا إلى جنب، دون أن ننطق بكلمة. لا بدّ أني نمتُ، لأنّ تلك الأحلام عاودتني. ثم استيقظتُ فجأة، وركضتُ من فوري إلى الأسفل حتى قبل أن أفيق تمامًا. أمّا الذي أوقظني فكان صوت أزرار الهاتف. كانت عند هاتف المطعم، بكامل ملابسها، والقبّعة، وإلى جانبها صندوق قبّعات حزَمت فيه أغراضها. خطفتُ السمّاعة منها ووضعتُها مكانها، ثم أمسكتُها من كتفيها ودفعتُها من باب الزنبرك ثم إلى السلّم.

«اصعدي. اصعدي وإلا—».

«وإلا ماذا؟»

رنّ الهاتف، فأجبت.

«الخطّ الذي طلبته جاهز، تفضّل».

«شركة التاكسي الأصفر معك».

«أوه. التاكسي الأصفر. نعم اتصلتُ بكم، لكنّي غيّرت رأيي. شكرًا».

«أوكي».

حين صعدتُ للأعلى كانت تنزع ملابسها. فلمّا عدنا إلى السرير استلقينا عليه وقتًا طويلًا دون أن ننبس بكلمة. ثم قالت:

«وإلا ماذا؟»

«وما الفرق؟ ربما لكمة على الوجه. ربما شيء آخر».

«كنت تفكّر في الشيء الآخر، صح؟»

«ما الذي تريدين أن تصلي إليه بالضبط؟»

«فرانك. أعرف الذي كان يدور في بالك. كنتُ تستلقي في السرير وتفكّر في طريقة لقتلي».

«كنت نائمًا».

«لا تكذب عليّ يا فرانك، لأني لن أكذب عليك. عندي شيء أريد أن أقوله لك».

ظللتُ وقتًا طويلًا أقلّب الأمر، لأنّ ذلك بالفعل ما كنتُ أفعله. كنتُ مستلقيًا إلى جانبها، أعصر دماغي في التفكير في طريقة لقتلها.

«طيّب إذن. كلامك صحيح».

«كنتُ أعرف».

«وأنتِ أحسن منّي؟ كنتِ ستسلّمين رقبتي لساكِت. نفس الشيء».

«نعم».

«إذن نحن متعادلان. مرّة أخرى متعادلان. كما كنا من البداية».

«لا أعتقد».

«صدقيني صحيح».

وهنا انهرتُ قليلًا، ووضعتُ رأسي على كتفها.

«هذا وضعنا بالضبط. يمكننا أن نضحك على أنفسنا، ونضحك في موضوع المال، ونتنكّت في موضوع الشيطان الذي يفعل بنا، لكن هذا هو الوضع. كنتُ سأهرب مع تلك المرأة يا كورا. كنا سنذهب إلى نيكاراغوا لاصطياد القطط. لماذا لم أذهب؟ لأنني كنت أعرف أنه لا بدّ أن أعود. مصيرنا واحد يا كورا. كنا نقول إننا فوق قمة جبل. غير صحيح. الجبل فوقنا. منذ تلك الليلة وهو فوقنا».

«لهذا السبب فقط رجعت؟»

«لا. بسبب الذي بيننا. ليس في حياتي غيرك. أحبك يا كورا. لكنّ الحب يختفي عندما يدخل فيه الخوف. يصبح كرهًا».

«إذن تكرهني؟»

«لا أعرف. لكننا نتكلم بصراحة، مرة في حياتنا. هذا جزء من الموضوع. لا بدّ أن تعرفي. والذي كنتُ أفكر فيه، هذا سببه. الآن تعرفين كل شيء».

«قلت لك عندي شيء أقوله لك يا فرانك».

«آه، نعم».

«أنا حامل».

«نعم؟»

«كان عندي شكّ قبل أن أذهب، لكني تأكدت بعد وفاة أمي».

«يا إلهي، يا إلهي. تعالي، أعطيني قبلة».

«لا. أرجوك. أريد أن أقول ما عندي».

«ليس هذا الذي قلتِه الآن؟»

«ليس ما أقصده. اسمع يا فرانك. طوال الوقت وأنا هناك، بانتظار انتهاء الجنازة، كنت أفكّر في الموضوع. معنى هذا بالنسبة لنا. نحن سلبنا شخصًا حياته، صح؟ والآن سنعطي حياة أخرى».

«صحيح».

«كان كلّ شيء ملخبطًا في رأسي. أما الآن بعد الذي حدث مع تلك المرأة، اتضحت الأمور. لا أستطيع أن أنجب الطفل ثم يكتشف أنني سلّمت أباه لحبل المشنقة».

«لكنكِ كنتِ ستقابلين ساكِت».

«لا. كنتُ سأرحل».

«هذا فقط هو السبب الذي منعك من مقابلة ساكِت؟»

أخذتْ وقتًا طويلًا قبل أن تجيب.

«لا. أنا أحبك يا فرانك. أعتقد أنك تعرف. ولكن ربما لولا هذا السبب لكنتُ قابلتُ ساكِت. لأنني أحبك».

«المرأة لم تكن تهمّني يا كورا. قلتُ لكِ السبب. كنتُ أريد الهرب فقط».

«أعرف. كنتُ طوال الوقت أعرف. أعرف لماذا كنت تريد أن تأخذني معك، ولم أكن جادّة حين قلت إنك متشرّد. ربما كنت جادّة، لكنه ليس السبب في رغبتك في الرحيل. أنا أحبّ فيك أنك متشرد. وكرهتُها لأنها انقلبت عليك لمجرّد أنك لم تخبرها عن شيء ليس من شأنها أصلًا. مع ذلك كنتُ أريد أن أدمّرك بسبب ما فعلته».

«طيّب؟»

«أنا أحاول أن أقول لك ما عندي يا فرانك. كنتُ أريد أن أدمّرك، لكنني مع ذلك لم أستطع أن أذهب لمقابلة ساكِت. ليس لأنك كنت تراقبني. كان يمكنني الهروب. السبب ما قلته لك. تخلّصتُ من الشيطان يا فرانك. أعرف أني لن أتصل بساكِت أبدًا. كانت عندي الفرصة، والدافع، ولم أفعل. الشيطان رحل عني. ولكن هل رحل عنك؟»

«ما دام رحل عنك، فلا حاجة لي به»

«لن نتأكد. لا يمكن أن نتأكد إلا إذا جاءتك الفرصة. نفس الفرصة التي كانت عندي».

«صدّقيني، لقد رحل».

«عندما كنت تفكّر في قتلي يا فرانك، كنت أنا أيضًا أفكّر في نفس الشيء. في الطريقة التي يمكن أن تقتلني بها. يمكنك أن تقتلني وأنا أسبح. يمكن أن نذهب إلى البحر مثل المرة الماضية، وإذا لم تكن تريدني أن أعود معك، فالأمر سهل. لن يعرف أحد. واحد من الحوادث التي تحصل في الشاطئ. سنذهب صباح الغد».

«الذي نفعله صباح الغد هو أن نتزوّج».

«يمكننا أن نتزوّج إذا أردت. ولكن نذهب إلى البحر قبل أن نرجع».

«انسي البحر الآن. تعالي، أين القُبلة؟»

«ليلة الغد إن عُدت ستكون هناك قبلات كثيرة. قبلات رائعة يا فرانك. ليست قبلات سكرانة. قبلات بها أحلام. قبلات من الحياة، لا من الموت».

«اتفقنا».

***

عقدنا زواجنا في مبنى البلديّة، ثم ذهبنا إلى الشاطئ. كنتُ لفرط جمالها أودَّ لو أظلّ ألعب معها فوق الرمل، لكنها ظلّت ترسم ابتسامة على وجهها، ثم نهضت ومشت صوب الأمواج.

«سأدخل البحر».

ذهبتْ، فسبحتُ خلفها. ظلّتْ تسبح وتسبح حتى وصلت مكانًا أبعد مما

وصلت إليه في المرة السابقة. ثم توقّفت، ولحقتُ بها. تقلّبت في الماء إلى جانبي، ثم أمسكتْ بيدي، ونظرنا بعضنا إلى بعض. في تلك اللحظة أدركتُ أنّ الشيطان رحل، وأنني أحبّها.

«قلتُ لك سابقًا لماذا أحبّ أن أترك قدميّ للموج؟»

«لا».

«كي يرفع الموج صدري».

جاءت موجة كبيرة رفعتنا، فوضعتْ كورا يدها على صدرها كي تريني كيف يرفعه الموج.

«يا سلام! صدري كبير يا فرانك؟»

«سأقول لك الليلة».

«أحسّ أنه كبير. لم أخبرك من قبل. المسألة ليست فقط أن تأتي بحياة أخرى، بل ما الذي ستفعله بك. أحسّ أنّ صدري كبير جدًا، وأريدك أن تقبّله. قريبًا ستنتفخ بطني، وسيعجبني، وأريد الكلّ أن يروه. إنها حياة. أشعر بها داخلي. هذه حياة جديدة لنا يا فرانك».

انطلقنا عائدَين، وكنتُ أغوص تحت الماء. وصلتُ إلى تسع أقدام. عرفتُ أنها تسعة أقدام من الضغط. معظم المسابح يبلغ عمقها تسع أقدام، وكان العمق نفسه. ضربتُ بقدميّ كي أغوص أعمق، وزاد الضغط على أذنيّ حتى خفتُ أن تنفجرا. لكنّي لم أكن مضطرًا للصعود. فالضغط على رئتيك يبعث الأكسجين في دمك، ولبضع ثوانٍ لا تفكّر حتى في التنفّس. نظرتُ في الماء الأخضر، وبدا لي مع ذلك الرنين في أذنيّ والضغط على صدري وظهري أنّني تطهّرتُ من كلّ الشيطنات، والخبث، والكسل، واللامبالاة في حياتي، وأنني جاهز لأن أبدأ معها من جديد، وأن أعيش حياة جديدة كما قالت.

***

حين صعدتُ على السطح وجدتُها تسعل.

«يبدو أنها واحدة من نوبات السعال».

«أنتِ بخير؟»

«أعتقد. تأتي وتذهب».

«شربتِ ماء البحر؟»

«لا».

سبحنا قليلًا، ثم توقّفتْ.

«فرانك. أحسّ بشيء غريب داخلي».

«تمسّكي بي».

«ربما أتعبتُ نفسي وأنا أحاول أن أبقي رأسي عاليًا كي لا أشرب الماء المالح».

«ارتاحي».

«شيء فظيع صح؟ سمعتُ عن نساء فقدن الجنين لأنهن أرهقن أنفسهن».

«ارتاحي. استلقي على الماء. لا تحاولي أن تسبحي. أنا سأسحبك».

«ربما الأفضل أن تنادي أحد المنقذين».

«أبدًا. سيصرّ على أن يهزّ ساقيكِ للأعلى والأسفل. استلقي فقط. سأوصلك إلى الشاطئ أسرع منه».

استلقت على الماء، وأخذتُ أسحبها من خيط الكتف في لباسها. بدأتُ أتعب. كان يمكنني أن أسحبها مسافة كيلومتر، لكنني ظللتُ أفكّر في أنه ينبغي أخذها للمستشفى، فحاولتُ أن أسرع. حين تُسرع في الماء، تغرق. على أيّة حال وصلتُ إلى الشاطئ بعد فترة، فأخذتُها بين ذراعيّ وعبرنا الماء بسرعة.

«لا تتحركي. أنا سأتصرف».

«تمام».

ركضتُ معها إلى المكان الذي تركنا فيه ملابسنا، فأجلستُها هناك. أخرجتُ مفتاح السيّارة من جيب سترتي، ثمّ لففتها بسترتي وسترتها وحملتها إلى السيارة. كنا قد أوقفناها عند الشارع، فكان عليّ أن أصعد الضفّة، فوق الشاطئ. كنتُ لفرط إجهادي لا أقوى على رفع ساق بعد الأخرى، لكنني لم أسقطها. وضعتُها في السيّارة، وشغّلتها، وانطلقنا.

***

كنا قد ذهبنا للسباحة على بعد بضعة كيلومترات من «سانتا مونيكا»، وهناك مستشفى. تجاوزتُ شاحنة كبيرة كُتب عليها «أطلق زامورك، والشارع لك». ضغطتُ على الزامور، لكنّ الشاحنة ظلّت في منتصف الطريق، فلم أستطع أن أتجاوزها من اليسار، فهناك سيّارات كثيرة قادمة نحوي. خرجتُ إلى يمين الشارع وانطلقتُ بسرعة، فصَرَختْ. لم أرَ جدار المجرى المائي. أذكر الصدمة، ثم أظلمت الدنيا.

***

حين أفقتُ وجدتُ نفسي محشورًا إلى جانب العَجَلة، وظهري باتجاه مقدّمة السيّارة، لكنني بدأتُ أتأوّه من فظاعة الصوت الذي سمعتُه. كان يشبه صوت المطر فوق سطح الصفيح، لكنّه لم يكن كذلك. كان دمها، يتساقط فوق غطاء المحرّك، فقد طارت إلى هناك عبر الزجاج الأمامي. سمعتُ أبواق السيارات، وكان الناس يقفزون من سيّاراتهم يهرعون إليها. رفعتُها، وحاولتُ أن أوقف الدم، فيما كنتُ أتحدّث إليها، وأبكي، وأقبّلها. لكنّ تلك القبلات لم تصل إليها. ماتت.

الفصل السادس عشر

قبضوا عليّ. وكاتز حصل على كلّ شيء هذه المرة، العشرة آلاف التي جلبها لنا، والمال الذي كسبناه، وصكّ المحل. بذل أقصى ما في وسعه من أجلي، لكنّه هُزم منذ البداية. قال ساكِت إنني مجرم مسعور ينبغي احتجازي كي لا أعرّض حياة الآخرين للخطر. رتّب القصّة كلّها. قتلنا اليونانيّ كي نحصل على المال، ثم تزوّجتُها، وبعد ذلك قتلتُها كي أحتفظ بالمال لنفسي. أما مسألة الرحلة إلى المكسيك فقد سرّعت الأمر، لا أكثر. تقرير المشرحة يقول إنها كانت حبلى، فقال ساكِت إنّ لهذا علاقة بالجريمة. استدعى ماج لسماع أقوالها، فقالت لهم عن رحلة المكسيك. لم تكن تريد ذلك، لكنها كانت مضطرّة. بل إنه أحضر الفهد إلى المحكمة. كان قد كبر قليلًا، ولكن لم يكن هناك من يعتني به، فكان يبدو أجرب، مريضًا، فأخذ يعوي وحاول أن يعضّ ساكِت. كان منظرًا مريعًا، ولم يكن في مصلحتي. أما الذي قضى عليّ فعلًا فهي الرسالة التي كتبتْها قبل أن تتّصل بالتاكسي، ووضعتْها في صندوق المحاسبة كي أراها في الصباح، ثم نسيتُها تمامًا. لم أرَ تلك الرسالة قطّ، لأننا لم نفتح المحل، ولم أنظر حتى في صندوق المحاسبة. كانت أجمل رسالة في العالم، لكنّها تذكر أننا قتلنا اليونانيّ، وكان هذا كافيًا. تجادلوا حول الرسالة ثلاثة أيام، وحاول كاتز أن يمنع استخدامها دليلًا في المحكمة بِكلّ ما أمكنه من قوانين في لوس أنجلس، لكنّ القاضي سمح باستخدام الرسالة، وهكذا انكشف كلّ شيء عن قتلنا اليونانيّ. قال ساكِت إنّ الرسالة تثبت دافع الجريمة. بالإضافة إلى كوني مجرمًا مسعورًا. لم يسمح لي كاتز حتى بأن أدلي بأقوالي. فما الذي كان يمكنني أن أقوله؟ أقول إنني لم أقتلها لأننا تصالحنا ورتّبنا كلّ شيء بعد الخلافات التي كانت بيننا بسبب

قتلنا اليونانيّ؟ رائع! خرجتْ هيئة المحلّفين للمداولة خمس دقائق، وقال القاضي إنه سيعاملني كما يعامل أيّ مجرم مسعور آخر.

وأنا الآن في سجن الإعدام، أكتب السطور الأخيرة في هذا النصّ، كي يراجعه الأب ماكونِل ويرشدني إلى التعديلات الإملائية وعلامات الترقيم وما إلى ذلك. إن حصلتُ على إيقاف للحكم، فسوف يُبقي الأوراق عنده إلى أن نعرف ما سيحدث. فإن حصلتُ على تخفيف للحكم، يحرق الأوراق ولن يعرف أحد منّي ما إذا كانت هناك جريمة قتل بالفعل. ولكن إن حكموا عليّ، فسوف يبحث عن أحد ينشرها. لكنّي أعرف أنهم لن يوقفوا التنفيذ، ولن يخفّفوا الحكم. لم أكن من النوع الذي يخدع نفسه. ولكن في هذا المكان تحديدًا تتمسّك بالرجاء، لأنك لا تملك شيئًا غيره. لم أعترف بشيء. سمعتُ ذات مرة شخصًا يقول إنهم لا يشنقون المرء أبدًا من دون اعتراف. لا أدري. لن يعرفوا منّي شيئًا أبدًا، إلا إذا غدر بي الأب ماكونِل. ربما يوقفون التنفيذ.

***

أشعر بتوتّر شديدٍ الآن، وكنتُ أفكّر في كورا. أتراها تعرف أنني لم أقتلها؟ يبدو هذا منطقيًا بعد الكلام الذي قلناه في البحر. لكنّ هذا هو السيئ في الموضوع، حين تعبث مع القتل. ربما خطر لها حين وقع حادث السيّارة أنني قتلتها. لهذا السبب أرجو أن تكون لي حياة أخرى بعد هذه. يقول الأب ماكونِل إنّ هناك حياة أخرى، وأنا أريد أن أرى كورا. أريدها أن تعرف أنّ كلّ ما قلناه بعضنا لبعض كان حقيقيًا، وأنني لم أقتلها. تُرى ما الذي يجعلني أشعر نحوها بهذا الشعور؟ لا أدري. كانت تريد شيئًا، وحاولتْ أن تحصل عليه. استخدمتْ كلّ الطرق الخاطئة، لكنها حاولت. ولا أعرف ما الذي جعلها تحمل تلك المشاعر لي، فقد كانت تعرفني جيّدًا. قالتها لي مرّات كثيرة، إنني شخص لا يعتمد عليه. والحقيقة أني لم أرد شيئًا سواها. لكنّ هذا كثير. ربما لا يحدث كثيرًا أنّ تحصل امرأة على هذا.

***

هناك شخص في الزنزانة رقم «7» قتل أخاه، يقول إنه لم يقتله، وإنما

لا وعيه هو الذي قتله. سألته عن معنى ذلك، فقال إنّ الإنسان لديه نفسان اثنتان، نفس يعرفها ونفس لا يعرفها لأنها في اللاوعي. هزّني هذا الكلام. أتراني قتلتُها وأنا لا أعرف؟ لا أصدّق هذا! لم أقتلها. كنتُ في ذلك الوقت أحبّها جدًا لدرجة أنّي كنتُ مستعدًا للموت من أجلها. فليذهب اللاوعي إلى الجحيم! لا أصدّق هذا. مجرّد هراء من تأليف هذا الشخص كي يخدع القاضي. الإنسان يفعل الشيء وهو يعرف أنه يفعله. وأنا أعرف أني لم أقتلها. هذا ما سوف أقوله لها لو رأيتها مرة أخرى.

***

أشعر بتوتّر شديد. أظنّهم يضعون مخدّرًا في الطعام كي لا نفكّر في الأمر. أحاول أن لا أفكّر. وكلّما استطعت، تخيّلتُ أني مع كورا هناك، السماء من فوقنا، والماء من حولنا، نتحدّث عن سعادتنا القادمة، إلى الأبد. أعتقد أني أفقد عقلي حين أكون معها هناك. وقتها يبدو الكلام عن الحياة الأخرى حقيقيًا، لا كما يصفه الأب ماكونِل. أؤمن بهذه الحياة الأخرى حين أكون معها. أمّا حين أبدأ في التفكير، يفسد كل شيء.

لن يوقفوا التنفيذ.

ها هم قادمون. يقول الأب ماكونِل إنّ الدعاء يساعد. إن وصلتم في القراءة إلى هنا، فادعوا لي ولكورا، وادعوا لنا بأن نكون معًا، أيًا ما كان المكان.

المحتويات

كنت في اليومَين التاليَين ميّتًا من التعب، لكنّ اليونانيّ كان منزعجًا مني، فتدبّرتُ أمري. كان غاضبًا لأنني لم أصلح باب الزنبرك الذي يفصل بين المطبخ وقاعة الطعام. قالتْ له إنّ الباب ارتدّ إليها وضربَها على فمها. كان لا بدّ أن تقول له شيئًا يفسّر انتفاخ فمها بعد أن عضضتُها. لذلك قال إنّ الذنب ذنبي لأنّي لم أصلح الباب. شددتُ الزنبرك فأصبحتْ دَفعةُ الباب أضعف، وانحلّت المشكلة.

لكنّ السبب الحقيقي وراء غضبه منّي كان اللافتة. فقد أعجبتْه الفكرة إلى حدّ الخوف من أنّني سأنسبها إلى نفسي. كانت لافتةً ضخمة لم يستطيعوا الانتهاء منها في اليوم نفسه، ولم تجهز إلا بعد ثلاثة أيام فذهبتُ إليهم وأحضرتُها وعلّقتُها. كانت تحتوي على كلّ ما رسَمَه في الورقة، إضافة إلى شيئَين آخرَين. كان بها علمٌ يونانيّ وعلمٌ أميركيّ، ويدان تتصافحان، وعبارة «رضاؤكم مضمون». واللافتةُ كلّها كانت بأضواء النيون الحُمر والبِيض والزُّرق، فانتظرتُ حتى حلول الظلام كي أشغّلها. وما إن شغّلتُها حتى أضاءت مثل شجرة عيد الميلاد.



«رأيت لافتات كثيرة في حياتي، لكنّي ما رأيت مثلها. أعترف بإبداعك يا نِك».

«يا سلام. يا سلام».

تصافحنا. وعادت الأمور إلى مجاريها.


9 789933 635688